عمر لطفي النجار

السنة النبوية والحقيقة المحمدية
في التصوف

بسم الله الرحمن الرحيم

ـ مقدمة:

إنه من أجل إدراك ما تعنيه السنة النبوية والحقيقة المحمدية في التصوف، نرى لزاماً علينا التذكير ببعض المبادئ الإسلامية التي قد تتيح للقارئ إمكانية الحوار مع تلك المعاني الصوفية التي أصبحت ذات معنى ديني بعد أن كانت ذات معاني فلسفية لا علاقة لها بالدين، ومن هذه المبادئ:

١ ـ السنة هي ما صح نسبته إلى الرسول ﷺ من أقوال وأفعال تبعاً لشروط المنهج العقلي المعتمد عند المحدثين أصحاب الإصحاحات.

٢ ـ ليس من الإسلام تجاوز السنة أو المأثور النبوي ومهما تكن الحجة إلا لمن أراد الخروج عن الدين.

٣ ـ الرسول ﷺ أو السنة هو النموذج الديني الأمثل والشامل لكل المسلمين دونما استثناء.

٤ ـ الرسول ﷺ في طبيعته بشر لا فرق في ذلك بينه وبين غيره إلا في اصطفائه للنبوة والوحي والرسالة.

٥ ـ الغلو في محمد ﷺ مرفوض ولا هو من الدين في شيء.

٦ ـ لا قديم إلا الله ولا شريك له في الملك والتصرف ولا ألوهية للإنسان مهما يكن ذلك الإنسان، ولا خلق إلا بعد عدم غير محدود برتبة ما من مراتب الوجود.

٧ – العقائد عند الله عز وجل متفاضلة "ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه".

وتلك هي المبادئ التي عارضها المنهج الصوفي في تعامله مع المأثور النبوي ومع الرسول ﷺ، بل ومن أجل بيان طبيعة التماس ما بين العقيدة الإسلامية والفكر الصوفي كان هذا الكتاب.

ـ الصوفي يشدِّد على اتباع السنة:

الصوفي لمن عرف منهجه في التعبير ذو لسانين دائماً، لسان لمخاطبة العوام والمريدين وبه تكون التقية، ولسان الواصلين الذي به حقيقة التصوف، وبه يكون المعنى الباطني المختلف للسنة، ولقد قال "الجنيد": الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول"[١]، وقال أيضاً: "مذهبنا هذا مقيد بالأصول: الكتاب والسنة. علمنا منوط بالكتاب والسنة"[٢]، والشيخ أبو سليمان الداراني يقول: "ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياماً، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة"[٣]، وأحمد بن الحواري قال هو الآخر: "من عمل بلا اتباع السنة فباطل عمله"[٤]، والشاذلي يقول: "إذا عارض كشفك الصحيح الكتاب والسنة فاعمل بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك: إن الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها لي جانب الكشف والإلهام"[٥]، والقشيري بدوره يرى أن المتصوفة هم خلاصة أهل السنة وعنهم يقول: "فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف واشتهر هذا الاسم لهؤلاء

---

[١] ـ ص١٥٩ طبقات الصوفية
[٢] ـ ص٤٢ التصوف بين الحق والخلق
[٣] ـ ص٧٨ طبقات الصوفية
[٤] ـ ص١٠١ نفسه
[٥] ـ ص١٢٣ ج٢ إيقاظ الهمم

الأكابر"[٦]. ودعوى الالتزام بالسنة ليست عند هؤلاء فقط وإنما تجدها عند كل المشايخ على العموم ابتداء من الكرخي وابن أدهم نهاية بابن سبعين وابن عربي مروراً بالحلاج والغزالي.

ولكن ما الذي تعنيه "السنة" وقد رأينا ما الذي يعنيه القرآن عند القوم في غير هذا الكتاب، فهل هي ما صحَّ عنه ﷺ من أخبار في أقواله وأفعاله؟ يقول الصوفي بلسان الظاهر ولا أقصد المريد: نعم، إلا أن كتابة الأحاديث النبوية برأيه أو هذه الإصحاحات التي بين أيدينا كما يقول الغزالي من أسوأ البدع التي مرت على التاريخ الإسلامي، وفي ذلك يقول: "إذا كان الاعتماد على المسموع من الغير تقليداً غير مرضي فالاعتماد على الكتب والتصانيف أبعد. بل الكتب والتصانيف مُحدثة لم يكن شيء منها في زمن الصحابة وصدر التابعين وإنما حدثت بعد سنة مائة وعشرين من الهجرة. بل كان الأولون يكرهون كتابة الأحاديث وتصنيف الكتب"[٧]. ولا بد للإصحاحات وفق هذا الرأي وعلى رأسها البخاري ومسلم أن تدفن في التراب بل ومن الواجب إتلاف كل الكتب التي روت أحاديثه ﷺ، والشيخ بشر الحافي على سبيل المثال يصرح بذلك وهو يقول: "وإني لأدعو الله أن يذهب به من قلبي – يقصد بذلك علم الحديث – ويذهب بحفظه من قلبي، وإن لي كتب كثيرة قد ذهبت، وأراها

[٦] - ص٧ الرسالة القشيرية
[٧] - ص٧٩ ج١ إحياء علوم الدين

توطأ بالأقدام ويرمى بها فما آخذها وإني لأهمُّ بدفنها وأنا حي صحيح، وما هو – أي علم الحديث – من سلاح الآخرة، ولا من عدد الموت"[8] يقصد: الكشف والوصول. وقد دفن الشيخ بشر حسب رواية الغزالي "دفن سبعة عشر قمطر من كتب الأحاديث. ثم قال: إن "حدثنا باب من أبواب الدنيا"[9]، وشتان بين الساعي للحق أو للآخرة وبين المنشغل بدنياه الغرورة، ولقد "قالت رابعة العدوية لسفيان الثوري: نعِم الرجل أنت لولا رغبتك في الدنيا، قال: وفيما ذا رغبت؟ قالت: في الحديث"[10]، فمن أراد الله ومن أفرد القصد إليه تعالى فلا يجب أن ينشغل بما سواه، وما العمل بالأحاديث النبوية حفظاً وجمعاً أو قراءة وتدريساً إلا من أعظم القواطع التي تعترض السالك إلى الحقيقة واليقين. "ومن أراد – كما يقول بشر الحافي – أن يكون عزيزاً في الدنيا سليما في الآخرة فلا يحدِّث ولا يشهد ولا يؤم قوماً. فقال له رجل: يا أبا نصر ما تقول لله تعالى إذا لقيته يوم القيامة وقال لك: لم لا تحدِّث الناس؟ فقال بشر رضي الله عنه: أقول: يا رب قد أمرتني بمخالفة نفسي وإن نفسي كانت تشتهي الحديث والرياسة فخالفتها ولم أعطها سؤلها"[11]. فالرجل معذور فنفسه الأمارة بالسوء إذن دفعته للأحاديث فكبحها فهكذا أمره الله!

---

[8] - ص١٣٩ دراسات في التصوف الإسلامي
[9] - ص٢٣٧ ج٢ إحياء علوم الدين
[10] - ص٢٣٧ ج٢ نفسه
[11] - ص٧٣ ج١ الطبقات الكبرى

العمل بالأحاديث من موبقات أهل الدنيا، إنه من القواطع "ولذلك قال أبو سليمان الداراني: من تزوج أو طلب الحديث أو اشتغل بالسفر فقد ركن إلى الدنيا"[١٢]، "وقال الجنيد رحمه الله: أحب للمريد المبتدأ أن لا يشغل قلبه بثلاث وإلا تغير حاله: التكسب، وطلب الحديث، والتزوج. وقال: أحب للصوفي أن لا يكتب ولا يقرأ لأنه أجمع لهمه"[١٣]. فعلى المريد الصوفي إذن إن أراد الفتح والكشف أن يكون جاهلاً بكل ما قاله وفعله الرسول ﷺ وأن يعيش على التسول وأن يكون من الأشرار لقوله ﷺ: "شراركم عزابكم"، والجنيد حسب رواية "قوت القلوب" يقول: "لا يبلغ الرجل عندنا مبلغ الرجال حتى يشهد فيه ألف صدِّيق من علماء الرسوم بأنه زنديق"[١٤]. فأين إذن حرصه وأمثاله على الكتاب والسنة، وبأي حق جعلُهم لعلماء الحديث والفقه من أعداء الله ورسوله.

الشيخ سري السقطي يرى أن العمل بالأحاديث ضروري للمريد المبتدئ، فللمريد إذن توجه أقوالهم التي فيها وجوب المحافظة على الكتاب والسنة، فعلم الحديث برأيه "ليس من زاد القبر"[١٥]، "وإذا ابتدأ الإنسان بالنسك ثم كتب الحديث فتر، وإذا ابتدأ بكتبْ الحديث ثم تنسك

[١٢] - ص٢٣٧ ج٢ إحياء علوم الدين
[١٣] - ص٢٣٩ ج٤ نفسه
[١٤] - ص٤٢ التصوف بين الحق والخلق
[١٥] - ص١٨٢ دراسات في التصوف الإسلامي

نفذْ"[16]. فالكتابة عقبة لا بد للسالك من تجاوزها طالما اقترنت ببداياته التي انطلق عنها، والشيخ أبو بكر الوراق حسب رواية القشيري يقول: "آفة الطريق ثلاثة أشياء: التزويج وكتبة الحديث والأسفار، وقيل له: لمَ تركت كتابة الحديث؟ فقال: منعتني عنها الإرادة"[17]. فالإرادة الإلهية لا تريده أن يكون منشغلاً بالأحاديث النبوية، وهي التي أمرته بالابتعاد عنها، وأية مقارنة عندها بين الآخذ عن الله والآخذ عن القيل والقال أو عن حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ؟

أما الشيخ نصر الدقاق "فيقول: آفة المريد ثلاثة أشياء: التزويج وكتابة الحديث ومعاشرة الضد"[18]، والشيخ أحمد بن المبارك يحكي لنا ما جرى له مع شيخه عند اهتدائه لطريق التصوف قائلاً: "أمرني – الشيخ – بيع ما عندي من الكتب كلها – بما فيها كتب الحديث والفقه – وأن أفعل بها شيئاً يحبه قلبي وتفرح به نفسي"[19]. فهذه الكتب على ما يبدو ليس فيها إلا ما هو منغص لأهل الله!

لقد هجر الصوفي العمل بالكتب بالأحاديث بالسنة لزهده بما سواه تعالى، وابن الفارض يقول منشداً:

[16] - ص٥٥ طبقات الصوفية
[17] - ص٩٣ الرسالة القشيرية
[18] - ص٨٩ ج١ الطبقات الكبرى
[19] - ص٨٢ ج١ الإبريز

"عنـي إليك فلـي حشاً لـم يثنهـا هجـر الحـديث ولا حـديث الهـاجر" [٢٠]

فالرجل لم يثنه حب الحديث ولا حب صاحبه ﷺ عما هو به من سفر إلى الحق، فقد انطلق عن البدايات ومن النقص أن يعود إليها تارة أخرى، وهو عينه ما قالته رابعة العدوية من قبل رغم بعد المسافة بينها وبين ابن الفارض حيث "قيل لرابعة: كيف حبك للرسول ﷺ؟ فقالت: والله إني لأحبه حباً شديداً ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين"[٢١]، "إلى حد لم يجعل ثمة مكاناً لمحبة غيره أو كراهيته"[٢٢]، ولما كان قولها هذا فيه معارضة للقرآن الذي اشترط حب الله بحب رسوله ﷺ نرى أن أبا سعيد الخراز قد تبرع بحكاية يقول فيها: "رأيت النبي ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله! اعذرني فإن محبة الله شغلتني عن محبتك. فقال ﷺ: يا مبارك، من أحب الله فقد أحبني"[٢٣]. وبذلك حسبما يزعم قد حق له الفصل بين الشرط والمشروط القرآني.

علم الحديث لا ينفع المسلم، فليس فيه زاد للقبر ولا للآخرة ولا فيه قربى إلى الله، فكله عقبة وقواطع يجب على السالك نحو الحقيقة والعرفان التخلص منه، والشيخ أبو العباس أحمد بن مسروق "يقول: رأيت القيامة قد قامت ورأيت موائد نصبت فأردت أن أجلس عليها فقالوا لي: هذه

---

[٢٠] - ص١٣٣ التصوف في شعر ابن الفارض
[٢١] - ص٣٦٠ ج٤ إحياء علوم الدين
[٢٢] - ص١٥٤ رابعة العدوية
[٢٣] - ص١٢٤ نفسه

للصوفية. فقلت: أنا منهم. فقال لي مَلَك: قد كنت منهم ولكن شغلك عن اللحوق بهم كثرة الحديث"[24]. فهلا علمت أيها السالك أن الحديث ليس إلا للمريد المبتدئ ولو عرفت ذلك لأقلعت عنه لتكون من السعداء الواصلين، فأين أنت من الشيخ أبو الحسن النجراني القائل عند اهتدائه لطريق القوم عندها "فرَّقتُ ما كنت جمعته من الكتب وكانت نحو حملين"[25].

واعلم بأن المحجوب كما يقول الغزالي هو الذي يحتاج في سلوكه إلى النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، بينما الواصل لا حاجة له بذلك لأنه على نور من ربه "فالسالك – كما يقول – إما أعمى-. وإما بصير. وكذلك الناس في طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام، فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد في خطوه فيفتقر أن يسمع في كل قدم نصاً من كتاب الله أو سنة رسوله-. ومن سعيد شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه-. وهذا لا يحتاج إلى نص منقول في كل واقعة"[26]، والفضيل بن عياض "كان يقول: من فهم معنى القرآن استغنى عن كتابة الحديث"[27]، وكان يقول أيضاً: "لو أنك يا مفتون عملت بما علمت لكان لك شغل عن سماع الحديث"[28].

[24] - ص٩٤ ج١ الطبقات الكبرى
[25] - ص٩٧ نفسه
[26] - ص٤ ج٤ إحياء علوم الدين
[27] - ص٦٨ ج١ الطبقات الكبرى
[28] - ص٦٩ نفسه

السنة لن تؤخذ من الكتب ولا من المحدثين وإنما من مشايخ التصوف ومن لا شيخ صوفي له فشيخه الشيطان "فمعرفة السنة موقوفة على الشيخ لا من الكتب، واتباع السنة لا تغني فيه الكتب"[٢٩]، فمن الضروري "الاقتداء بشيخ قد تحقق اتباعه للسنة"[٣٠] فهو العارف بمعنى القرآن والعامل بما علم.

ولكن من أين سيأتينا الشيخ الصوفي بالسنة النبوية وقد قذف بأخبارها إلى التراب والتلف؟ إنه الكشف وبالكشف نهاية الكتب وموتها، سيأتينا بها من الحي الذي لا يموت لا عن الرسول الميت، فالسنة ليست بالمأثور عنه ﷺ، وها هو الشيخ أبو يزيد البسطامي يخاطب المحدِّثين قائلاً: "أخذتم علمكم ميتاً عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت"، والشيخ أبو مدين كان إذا سمع أحداً "من أصحابه يقول في حكاية أخبرني بها فلان عن فلان- عن رسول الله ﷺ يقول: لا تطعمونا القديد- يعني لا تحدثوا إلا بفتوحكم الجديد"[٣١]، والخضر الساذج برأيهم قد أمر مرة أحد المتصوفة بالاستماع إلى الأحاديث النبوية عن المحدث عبد الرزاق بن همام، فقال الصوفي: "إنه يروي عن ميت! وأنا لست بغائب عن الله عز وجل، فقال الخضر: إن كنت كما تقول فمن أنا؟ فرفع رأسه

[٢٩] - ص٢٢٢ التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقتباس
[٣٠] - ص٢٢٣ نفسه
[٣١] - ص١٧ ج١ اليواقيت والجواهر

رضي الله عنه وقال: أنت أخي أبو العباس الخضر"[٣٢] فخجل الخضر من جهله فولى بعيداً وهو يقول: الآن علمت "أن لله عباداً لم أعرفهم".

وإذا ما كان الجمع بين التصوف والأحاديث فهذا من الأعجوبات، وابن عربي يقول عن الشيخ أبو الحسين يحيى بن الصائغ: إنه من المحدثين وهو صوفي، وهذا من الأعجوبات. محدِّث صوفي، كبريت أحمر!!"[٣٣]. وإذا ما أردت إزالة العجب فإما ستراه محدثاً وضاعاً للأحاديث الداعمة لأصول القوم ومنهجهم وإما أنه من الجاهلين بطبيعة المنهج الصوفي، وها هو مثلاً المحدِّث الشهير محمد بن يوسف القطان اتهم معاصره الصوفي "أبو عبد الرحمن السلمي صاحب الطبقات والمولود ٣٢٥ هـ، بوضع الأحاديث قائلاً: "وكان يضع للصوفية الأحاديث""[٣٤].

مصطلح "السنة أو اتباع السنة" له عند المتصوفة معنى مختلف عما هو مألوف، فليس معناه ما صح عن الرسول ﷺ من أحاديث وأفعال، وقد سئل أبو يزيد البسطامي "رضي الله عنه عن السنة والفريضة. فقال: السنة ترك الدنيا بأسرها، والفريضة الصحبة مع الله تعالى"[٣٥]، والشيخ أبو بكر الكتاني أيضاً سئل عن السنة التي لم ينازع فيها أحد من أهل

---

[٣٢] - ص١٦٦ الرسالة القشيرية
[٣٣] - ص٨٢ روح القدس في محاسبة النفس
[٣٤] - ص٤٥ طبقات الصوفية، تصدير
[٣٥] - ص٧٧ ج١ الطبقات الكبرى، ص٧٤ طبقات الصوفية

العلم، فقال: هي الزهد في الدنيا وسخامة النفس ونصيحة الخلق"[٣٦]. وهذا بالطبع لا يعني إلا وجوب التحرر مما هو صحيح وثابت في كتب الإصحاحات لتصبح السنة والفريضة تقديرات شخصية لتقرير أصول القوم ومبادئهم.

السنة بالمعنى الصوفي ليست بـ "حدَّثنا" ولا بالأحاديث الصحاح، وإنما السير على سنته ﷺ التي كان بها تحصيله ما أتانا به من معارف وأنباء، إنها السلوك في منهجه العرفاني واقتفاء أثره خطوة خطوة، "فليست السنة في نظر التستري مثلاً مجموعة من الأحاديث والروايات والأخبار يتناقلها الرواة والمحدثون ولكنها بطريق الأولى النمط الأمثل للحياة وللرحلة التي قام بها أقدر قائد روحي"[٣٧].

الصوفي لا يلتزم بما هو مأثور عن محمد ﷺ ولا يكترث بهذا المأثور على الإطلاق طالما قيمته تابعة إلى موازين الكشف، فبالكشف يصحح الصوفي هذا الحديث أو يضعف ذاك دونما حد إلا الإتساق مع مبادئه أو مع ما يمليه عليه كشفه، فلا قيمة لصحيح مسلم ولا لصحيح البخاري ولا لأي كتاب من إصحاحات الأحاديث لأن الصوفي يملك من جهة أخرى المصدر الصحيح للوصول إلى ما قرره الرسول ﷺ وما قاله دونما خطأ أو التباس، فالدباغ مثلاً سئل عن المراد من حديث رسول الله ﷺ فوعد

[٣٦] - ص١١٠ ج١ الطبقات الكبرى
[٣٧] - ص٣١٠ من التراث الصوفي

السائل بالإجابة غداً، وعند الموعد المتفق عليه قال للرجل: سألت النبي ﷺ عن مراده بهذا الحديث فأجابني:-."[٣٨].

وإذا ما سألت الصوفي عن أسلوبه في التعرف على الحديث الصحيح من المكذوب فسوف تراه يقول: لا، ليس بالسعي وراء الرواة، ولا بالبحث عن الأسانيد، لا، ولا في الجرح والتعديل، بل بالنور، "فمن تكلم بكلام النبي ﷺ خرج النور من كلامه، ومن تكلم بغير كلامه خرج الكلام بغير نور"[٣٩]. وهذا معناه على الأقل نسف ما يعنيه الجرح والتعديل وعندها يحق لك أخذ الأحاديث من أي مصدر كان سواء كان صاحبها منافقاً أو كذاباً طالما أن الكلام النبوي بحد ذاته يعرفنا على نفسه، إلا أن المشكلة في أن النور لا يدركه إلا الصوفي، وعندها فلا مصدر للأحاديث إلا ما يقوله هو دون سواه، "فالولي المفتوح عليه يعرف الحق والصواب، ولا يتقيد بمذهب من المذاهب. وكيف لا؟! وهو الذي لا يغيب عنه النبي ﷺ طرفة عين ولا يخرج عن مشاهدة الحق لحظة، وحينئذ فهو العارف بمراد النبي ﷺ وبمراد الحق ﷻ في أحكامه التكليفية وغيرها"[٤٠]. فهو العارف بكل الأحاديث الصحيحة ولا رأي يغلب رأيه ولا حكم راد لحكمه إلا لمن كفر وعارض الله ورسوله.

---

[٣٨] - ص١٣٠ ج١ الإبريز

[٣٩] - ص١١٤ ج١ نفسه

[٤٠] - ص٩٧ ج٢ نفسه

فالمتصوفة كما يقول ابن عربي "يرونه ﷺ في كشفهم فيصحح لهم من الأخبار ما ضعِّف عندهم بالنقل، وقد ينفون من الأخبار ما ثبت عندنا بالنقل"[41]، "وإذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ وعلم، رجع الصوفي إلى الله فيه فيعرف صحة الحديث من سقمه سواء كان الحديث عند أهل النقل من الصحيح أو مما تكلم فيه، فإذا عرف فقد أخذ حكمه من الأصل، وقد أخبر أبو يزيد بهذا المقام – أعني الأخذ عن الله عن نفسه أنه ناله فقال:-. أخذتم علمكم ميتاً عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، ولنا بحمد الله في هذا المقام ذوق شريف فيما تعبدنا به من الأحكام"[42]، وإذا ما حكم الكشف بصحة هذا الحديث أو ذاك سواء كان موضوعاً أو مكذوباً فليس للصوفي إلا الأخذ به حتى إن عارض كل المناهج التي بها تنقح الأحاديث، فالكشف هو الأصل ومنه الصواب وفي ذلك يقول ابن عربي: "فليعوِّل الولي عليه، وليستوفي العمل به إليه وإن وهنت روايته في الظاهر – عند المحدثين – فهو الصحيح وإن ورد ضعف الصحيح في الظاهر"[43].

الصوفي في سماعه للحديث عن رسول الله ﷺ مساو للصحابة، وقد يسمع ما يلقيه جبريل على حقيقة محمد ﷺ كما سمعه الصحابة وهو يلقي

---

[41] - ص٢٨ ج٤ بـ٤١٩ الفتوحات المكية
[42] - ص٤١٣ – ٤١٤ ج٣ بـ٣٧٠ نفسه
[43] - ص٣٩٦ ج٤ بـ٥٥٩ نفسه

عليه في ظاهره البشري، فرب حديث "ضعيف قد تُرك العمل به لضعف طريقه من أجل وضَّاع كان في رواته يكون صحيحاً. وهذا ولي قد سمعه من الروح يلقيه على حقيقة محمد ﷺ كما سمع الصحابة من حديث جبريل عليه السلام مع محمد ﷺ. وإذا سمعه من الروح الملقي فهو فيه مثل الصاحب الذي سمعه من فم رسول الله ﷺ علماً لا يشك فيه بخلاف التابع. فهؤلاء هم أنبياء الأولياء"[٤٤]، وأنبياء التصوف هؤلاء "هم أعلم الناس بالشرع غير أن الفقهاء لا يسلِّمون لهم ذلك وهؤلاء لا يلزمهم إقامة الدليل على صدقهم بل يجب عليهم الكتم لمقامهم ولا يردُّون على علماء الرسوم فيما يثبت عندهم"[٤٥]، فالصوفي ليس بحاجة إلى كتب المحدثين ولا إلى علومهم المبنية على المنهج الخطأ، فهو صحابي شأنه في ذلك شأن أبي بكر وعمر وغيرهما، وكل ما يلزمه أن يكتم صحة علومه ونبوة ولايته عن الناس حتى لا يؤذوه على زعمه أو بما صح عندهم من الأحاديث، واعلم أنه "لا يسمى صاحباً ولو رآه – أي للرسول – في كل منام، حتى يراه وهو مستيقظ كشفاً يخاطبه ويأخذ عنه ويصحح له من الأحاديث ما وقع فيه الطعن من جهة طريقها"[٤٦]، حتى أن "الكشف يصل بصاحبه إلى أن يعرف عن طريقه من وضع ذلك الحديث فإما أن يسمى له، وإما أن

---

[٤٤] - ص١٥٠ ج١ بـ١٤ نفسه
[٤٥] - ص١٥١ نفسه
[٤٦] - ص٥٠ ج٣ بـ٣١٣ نفسه

يقام له صورة الشخص"[٤٧]. إلا أن الفقهاء وأصحاب الحديث هؤلاء المحجوبين بعيدين عن الإنصاف بعدهم عن الذوق والمنهج المعرفي، ولذلك فليس من حقهم كما يقول ابن عربي تكذيب أصحاب الكشف ولا تكفيرهم "فلا عذر لهم فإن أقل الأحوال أن يُنزلوا الأولياء منزلة أهل الكتاب لا يصدقونهم ولا يكذبونهم. فمن عدم الإنصاف إيمانهم بما جاء من أخبار الصفات على لسان الرسل وعدم إيمانهم بالأولياء فإن البحر واحد"[٤٨].

وعندما أخذ ابن عربي بحديث "زريب بن برثملا" الذي خرج من بطن الجبل على زي الصوفية وهيئتهم وهو حديث كذَّبه المحدثون قال: "هذا الحديث وإن تُكلِّم في طريقه فهو صحيح عند أمثالنا كشفاً. وهذا عندنا ذوق محقق. ومن تلك الطريق نصحح الأحاديث النبوية ونردها أيضاً إذا أعلمنا أنها واهية. فأهل هذه الطريقة ما يأخذون إلا بما حكم به رسول الله ﷺ"[٤٩]. وعن حديث آخر يقول: "رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهميان للمُحرم وإن كان هذا الحديث لا يصح عند أهل الحديث هو صحيح عند أهل الكشف"[٥٠]، "فالمحدِّثون أنزل الدرجات"[٥١].

---

[٤٧] - ص١٧١ التصوف الإسلامي بين الأدب والفلسفة
[٤٨] - ص٩١ م٤٧ اليواقيت والجواهر
[٤٩] - ص٢٢٤ ج١ بـ٣٦ الفتوحات المكية
[٥٠] - ص٧٤٤ ج١ بـ٧٢ نفسه
[٥١] - ص٧٧ ج١ بـ٧٣ نفسه

الصوفي يأخذ الأحاديث عن الرسول مباشرة، فإياك والاحتجاج عليه بشيء منها، بل ويأخذها عن الله مباشرة وهذه هي الأحاديث القدسية التي على منوال "حدثني قلبي عن ربي كذا وكذا" وما أكثر قدسياتهم وهواتفهم الإلهية، فعلى سبيل المثال يقول الشيخ ابراهيم بن أدهم: "قلت ذات يوم يا رب إن أعطيت أحداً من المحبين لك ما سكن به قلبه قبل لقائك فاعطني ذلك فقد أضر بي القلق. قال: فرأيت في النوم أنه أوقفني بين يديه وقال:-."[٥٢]، وسري السقطي يروي عن الجنيد حديثاً قدسياً عن ربه فيقول: "رأيت أني وقفت بين يديه فقال لي:"[٥٣] أنه لم يبق مع الله إلا أهل التصوف الذين هم عبادي حقاً، وآخر يقول: "فسمعت هاتفاً – من الله – يقول: من لم يصلح للدنيا وللآخرة يصلح لنا"[٥٤]، أما ابن عربي فيعترف في فتوحاته بأنه ألهم أحاديث قدسية وضعها في كتاب بمكة سنة ٥٩٩ هـ "ضمَّنه أربعين حديثاً قدسياً ليست مسندة إلى رسول الله ﷺ"[٥٥].

السنة برأي الصوفي ليست محدودة بالمأثور النبوي فحسب، وإنما في كل ما كان موافقاً لأصول منهجهم، "فالطريقة السبعينية – مثلاً – التي أسسها ابن سبعين ليست في ترتيب الإسناد آخذة بالترتيب الزمني الذي ينتهي إلى رسول الله ﷺ، وإنما هي طريقة تجعل استمدادها من عديد

[٥٢] - ص٣٢٣ ج٤ إحياء علوم الدين
[٥٣] - ص١٥٤ ج١ إيقاظ الهمم
[٥٤] - ص٢٥٣ ج٢ نفسه
[٥٥] - ص٢٢ – ٢٣ الروحية عند محيي الدين ابن عربي

من الصوفية والفلاسفة مسلمين وغير مسلمين، ودون مراعاة للترتيب الزمني، فقد أورد الششتري- في عداد شيوخها هرمس وسقراط وأفلاطون وأرسطو والاسكندر الأكبر والحلاج والشبلي والنفري والحبشي- وابن طفيل وابن رشد"[٥٦] وإلى ما هنالك من هذه التجليات المحمدية، وابن عربي لا يتوانى في جعل الجماد والحيوانات من شيوخه، ابتداء من الميزاب نهاية بالكلب، وعنهم أخذ ديانته وطرق عباداته وفي ذلك يقول: "ميزاب رأيته في مدينة فاس- فوقفت على عبادته وأجهدت نفسي عسى أجري معه في ذلك، ومنهم – أي من شيوخه – ظلي الممتد من شخصي أخذت منه عبادتين قد أخذ نفسه بهما وأشباه ذلك، وأما الحيوانات فلنا منهم شيوخ ومن جملة شيوخنا الذين اعتمدت عليهم الفَرَسْ، فإن عبادته عجيبة، والبازي والهرة والكلب- وهم في كل لحظة، مع اعتقادهم بسيادتي عليهم يوبخوني ويعاتبوني"[٥٧]. فالصوفي ليس ملتزماً في عقائده وعباداته فيما هو مأثور عن محمد ﷺ فللرجل طريقته الخاصة وإسناده الخاص به حتى أن علاقة المتصوفة بالرسول لا تتعدى إلا اعتباره واحداً من أوليائهم ولذلك كان ربطهم لمعنى السنة تحديداً بمعنى القدوة للصوفي المسمى محمد بن عبد الله سواء في رياضاته كما يزعمون أو في مقاماته التي وصل إليها أو في اكتسابه للنبوة على

[٥٦] - ص١٦٩ ابن سبعين وفلسلفته الصوفية
[٥٧] - ص١٠٠ روح القدس في محاسبة النفس

الإجمال. وكل ما سوى هذه المعاني لا قيمة له برأيهم ولهم في هذا الشأن تخاريج عجيبة، فإن قلت مثلاً: إن ما تزعمونه لم يرد في سنة أو أثر قالوا: فاعلم أنه ليس كل شيء اطلع الله عليه رسول الله ﷺ يلزمه الإعلام به"[٥٨]. وبذلك يكون قد وضعوه ﷺ بين فكي الظاهر والباطن، فما كان معارضاً للسنة فهو عندها من الأسرار الباطنية التي لم يبح بها النبي لعوام الناس.

وإن أمرتهم بعدم الغلو لأن الغلو لا أصل له من سنة وصحابة قالوا: إنه رسول وقد غفر الله له ما تقدم وما تأخر، وأما الصحابة "فلو لم يكن لهم إلا الصحبة متى نلحق بهم؟"[٥٩].

وإن قيل لهم اتبعوا الرسول فيما قال به عن ربه ترى أحدهم يقول: وأنا أيضاً وصلت إلى الله بعون الله وحده من غير وساطة من الخلق"[٦٠] فليس بي حاجة إلى تقليد أحد، وهل إلا من معين واحد نهل الأنبياء والأولياء؟!

وبعد هذا كله أيحق للعراقي المحدِّث إتهام الغزالي بأنه الجهول في الأحاديث النبوية وأصولها؟! لا، طالما كل منهما قد وقف على جانب مختلف عن الآخر، فعلى الرغم من كتاب "إحياء علوم الدين" وحده فيه

---

[٥٨] - ص٨٤ لطائف المنن
[٥٩] - ص٦٩ روح القدس في محاسبة النفس
[٦٠] - ص٢٥ التصوف الإسلامي وتاريخه

ما يربو عن ستمائة حديث بين الضعيف والمكذوب وما لا أصل له"[٦١]
نرى الشيخ عبد الله العيدروس الصوفي يقول: "عليكم يا إخواني بمتابعة الكتاب والسنة، أعني الشريعة المشروحة في الكتب الغزالية-. وشرح الكتاب والسنة مستوفى في كتاب إحياء علوم الدين-. عليكم بملازمة كتاب إحياء علوم الدين فهو موضع نظر الله وموضع رضا الله-. ولو بعث الله الموتى لما أوصوا الأحياء إلا بما في الإحياء-. إنه لا شيء أنفع للقلب وأقرب إلى رضا الله من متابعة حجة الإسلام الغزالي ومحبة كتبه-. ومن طالع كتاب الإحياء فهو من المهتدين-. فكتب الغزالي قلب الكتاب والسنة-. وكتاب إحياء علوم الدين فيه جميع الأسرار-."[٦٢]

فالإحياء أو إحياء علوم الدين الصوفي الذي يعج بالموضوعات وفق معايير المحدثين والفقهاء هو في نظر الصوفي النواة للسنة النبوية وهو موضع نظر الحق سبحانه، وبه يجب أن يتقرب المسلم إلى ربه، ومعايير الفقهاء برأي الصوفي قاصرة عن الحقيقة وعن أسرارها ولا يحق لها الحكم على أهل المواجيد والأذواق على الواصلين إلى المصدر الذي عنه كل حديث صحيح، فلا يعقل لمن له علم الغيوب والأسرار ألا يكون عارفاً بالأحاديث الصحيحة والسقيمة، فكل ما في الإحياء من الأحاديث إذن هي أحاديث لدنية وصحيحة صحة مطلقة.

[٦١] - ص١٢٧ الصوفية في نظر الإسلام
[٦٢] - ص٥ ملحق إحياء علوم الدين

أما الواسطي في "الطبقات العلية" فيصر على تجهيل الغزالي ليبرئه ولكن على صيغة الاعتذار والتوفيق بينه وبين المحدثين قائلاً: "وكانت خاتمة أمره – أي الغزالي – إقباله على حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ومجالسة أهله، ومطالعة الصحيحين البخاري ومسلم اللذين هما حجة الإسلام، ولو عاش لسبق الكل في ذلك الفن"[٦٣]، وعبد الأمير الأعسم يعذر الغزالي لأنه كما يقول: "كان يعتمد الذاكرة أثناء تأليفه عند الاستشهاد بالأحاديث مما أدى به إلى الوقوع في خطأ التحريف والتبديل بل الوضع أحياناً بشكل عفوي تلقائي"[٦٤].

والحقيقة أن هذه الاعتذارات لا معنى لها عند الصوفي إلا اتهام قائليها بأنه بعيد كل البعد عما تعنيه السنة في الفكر الصوفي أو ما يعنيه الخطأ والصواب وفق معايير القوم، والغزالي على الحقيقة له علم تام بالصحيح مسلم والصحيح بخاري، وما أعظم فخره في الأحاديث التي يأخذها عنهما في إحيائه عند استشهاده بها لمسألة من المسائل إلا أن الفيصل والحكم في هذا الموضوع يتبع للأصول والمبادئ الصوفية التي حاول إحياءها، وما الكشف عن أيديهم أو يديه ببعيد، فليس من حديث ورد في الإحياء حسب معاييرهم إلا وهو الصواب الذي لا بد من اتخاذه، وليس بخاف سفر الغزالي من طوس إلى جرجان حيث أبي نصر الذي

---

[٦٣] - ص١٧٥ الفيلسوف الغزالي
[٦٤] - ص٧٦ نفسه

"علق عنه التعليقة ثم رجع إلى طوس"[٦٥]. وهل لأحد الفصل بين الباطن والحقيقة تلك الحقيقة القائلة على لسانه: أن الكتب التي حوت الأحاديث النبوية هي من أسوأ البدع التي انتشرت بين المسلمين!

[٦٥] - ص د ج١ إحياء علوم الدين

ـ حديث من عرف نفسه عرف ربه:

إنه لبيان أهمية المبادئ الصوفية التي تتحكم في صحة أو عدم صحة الأحاديث النبوية ميدانياً نرى لزاماً علينا معايشة الحديث المزعوم الذي يقولون فيه "من عرف نفسه عرف ربه". فلهذا الحديث أو القول كما هو معلوم أهمية خاصة عند المتصوفة شأنه في ذلك شأن كل الأحاديث التي وضعوها تكريساً لأصولهم سواء في خروج رياضاتهم عن الشرع والسنة المحمدية أو في مزاعمهم المعرفية والعقائدية أو في صبغ منهجهم العرفاني الغنوصي بالصبغة الإسلامية.

يقول الغزالي: "وقيل كان في كتب الله المنزلة إعرف نفسك يا إنسان تعرف ربك وقال عليه السلام: أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه"[٦٦]، والشيخ أبو العباس يراه من الأحاديث الصحيحة، والسكندري يقول: "فقد جاء في الحديث: من عرف نفسه عرف ربه"[٦٧]، والسراج أيضاً على هذا الرأي وبه قال"[٦٨] وهو من الأحاديث التي لا شك في صحتها عند ابن عربي، بل وكل المتصوفة أخذوا به على أنه من الرسول ﷺ، إلا أن الشعراني ينبهنا إلى حقيقة صحته عند القوم، فهو كما يقول صحيح ولكن عن طريق الكشف، وهكذا حقيقته عند المتصوفة "فانظر يا أخي – كما يقول الشعراني – كثرة حرص النبي ﷺ على أمته كيف اختصر الطريق إلى معرفة الله تعالى بقوله في

---

[٦٦] ـ ص١٤ ميزان العمل
[٦٧] ـ ص٤٤ لطائف المنن
[٦٨] ـ ص٢٢ التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة

الحديث الثابت كشفاً "من عرف نفسه عرف ربه""[69]، ومصطلح "الثابت كشفاً" يكرره مرتين في نفس الصفحة تأكيداً لحقيقة مزاعمه.

ولكن ما رأي المحققين والمحدِّثين والفقهاء في هذا الحديث؟ المحققين يقولون أن هذا الحديث حديث شيعي منسوب إلى جملة أقوال "الإمام علي"[70]، "وقد اشتهر هذا الحديث في دوائر المتصوفة والشيعة وبنى عليه كل من الفريقين فلسفته في المعرفة"[71].

أما ابن سبعين الذي لا اهتمام كبير له بالسند الإسلامي فيقول بمعرض معنى الحديث: "وهذا هو المفهوم من قول الحكيم "من عرف نفسه عرف ربه""[72]، ولما كان معلوماً أخذه وأمثاله عن حكماء اليونان أو فلاسفتهم فإننا نرى استصواب رأي "ديبور" القائل: "إن هذا القول إنما هو تصرف في عبارة سقراط التي كتبت على معبد دلفي": "اعرف نفسك". وقد وردت في ثوب من المذهب الأفلوطيني الجديد"[73]، وقد نسبها الشيعة "إلى علي ختن الرسول بل إلى الرسول نفسه"[74] عند المتصوفة.

أما المحدثون والفقهاء فآراءهم واحدة ولهم مع هذا الحديث قصص إلى حد أن الحافظ السيوطي له فيه "تأليف لطيف سماه القول الأشبه في حديث من

---

[69] - ص٤٤ ج١ م٣ اليواقيت والجواهر
[70] - ص٢٢ التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة، ص٦٦ الصلة بين التصوف والتشيع
[71] - ص١٦٨ ج١ نظرية المعرفة الإشراقية
[72] - ص١٢٧ بد العارف
[73] - ص١٦٨ ج١ نظرية المعرفة الإشراقية، ص٦٦ الصلة بين التصوف والتشيع
[74] - ص٢٢ التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة

عرف نفسه عرف ربه"[٧٥]، وكان حكمه قائلاً: "إن هذا الحديث ليس بصحيح"[٧٦]، "وقد سئل عنه النووي في فتاويه فقال: ليس بثابت. وقال الزركشي في الأحاديث المشتهرة: ذكره ابن سمعان أنه من كلام يحيى بن معاذ"[٧٧]، "وقال الحراني أنه حديث موضوع، وقال ابن المظفر بن السطاني في القواطع أنه لا يُعرف مرفوعاً"[٧٨]، وابن القيم الجوزية يقول: أنه من الكلام "المشهور. وليس هذا حديثاً عن رسول الله ﷺ، إنما هو أثر إسرائيلي بغير هذا اللفظ "يا إنسان اعرف نفسك تعرف ربك""[٧٩]، وهو الذي عناه الغزالي عندما جعل الرسول ﷺ مكرراً لمعنى هذا القول الذي نسبه إلى الديانات الأخرى.

إن لهذا الحديث أهمية خاصة في بنية الفكر الصوفي "وسواء صح هذا الحديث أم لم يصح فإنه يمثل قاعدة مجمعاً عليها من الصوفية جميعاً"[٨٠]. ففيه تقرير لمصطلح المعرفة الكشفي الذي معناه العلم بالشيء مفصلاً أو على اليقين مقارنة بمصطلح العلم الذي خصوه بالمجمل، وفيه تقرير ارتباط المعرفة تحديداً بالله عز وجل، كما أنه يعني إلى وجوب الرياضات التي لها نقل الإنسان من مقام إلى مقام أعلى، كما فيه تضمين الوجود المتصل ابتداء من النفس نهاية بالله وكذلك فيه الاعتماد على النفس وقواها أو ملكاتها في تفسير النبوة وكل ما له علاقة بالوحي، بل وفيه أيضاً تبرير وحدة العقائد طالما أن معرفة الله عز

---

[٧٥] - ص٦٠ المظنون به على غير أهله. هامش
[٧٦] - ص٢١ التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة
[٧٧] - ص١٦٨ ج١ نظرية المعرفة الإشراقية
[٧٨] - ص٦٠ المظنون به على غير أهله. هامش، ص٢١ التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة
[٧٩] - ص٤٢٧ ج١ مدراج السالكين
[٨٠] - ص٢٩٧ التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقتباس

وجل مشروطة بمعرفة النفس وهي لكل من كان عارفاً بنفسه بغض النظر عن إيمانه وما يعتقد به. وبمعنى الرياضات قال بعض المتصوفة: "إن المعرفة المشار إليها معرفة أساسها الأضداد، فمن عرف نفسه مفتقراً عرف الله غنياً. ومن عرف نفسه حادثاً عرف الله قديماً"[٨١]. ومن هذا المعنى كان لهم مصطلح "التخريب وقهر النفس بشتى الفنون والأساليب التي لا ترضى عنها السنة النبوية وطبيعة الإسلام.

وبمعنى الجمع بين الوجود المتصل والرياضات في مصطلح المعرفة عبر هذا الحديث تساءل الغزالي وأجاب نفسه قائلاً: "فما معنى قوله عليه السلام من عرف نفسه فقد عرف ربه؟ أجاب: "لأن الأشياء تعرف بالأمثلة المناسبة ولولا المضاهاة المذكورة لم يقدر الإنسان على الترقي من معرفة نفسه إلى معرفة الخالق"[٨٢]. وبمعرفة النفس المماثلة للخالق التي معناها خُلق الإنسان على الصورة الإلهية كان تأليه الكامل انتهاء بتأليه محمد ﷺ في حقيقته التي آمنوا بها.

ويبقى ابن عربي الوثيقة الأهم تعبيراً عما حاك في صدور المتصوفة قبله، وعن معنى الوجود المتصل يقول: "ومن عرف نفسه عرف ربه ضرورة، فما يعرف الحق إلا الحق"[٨٣]، وما النفس إن صح التعبير إلا بضعاً من الله، ومن ذاق بعضاً من البحر حكم على كله بالأجاج وهو معنى قوله

[٨١] - ص١٤٢ التصوف الثورة الروحية في الإسلام، ص٤٤ لطائف المنن
[٨٢] - ص٩٧ ج٢ المظنون الصغير
[٨٣] - ص٩ ج٤ بـ٤٠٦ الفتوحات المكية

تعالى: "ونفخت فيه من روحي" "فمعرفة الإنسان بنفسه مقدمة على معرفته بربه"[٨٤]، "فمن عرف نفسه فقد عرف ربه فإنه على صورته خلقه، بل هو عين هويته وحقيقته"[٨٥] لأنه تعالى بمثابة روح العالم كله كما هي النفس في الإنسان "ومن أراد أن يرى الحق فلير نفسه- فإن النفس لا تُعقل مجردة- وإذا لم يُعقل سبحانه مجرداً عن العالم فلن تعقل ذاته ولا شهدت من حيث هي فأشبه العلم به العلم بالنفس"[٨٦]. فالإنسان على صورة الله وهو مِثله وما ذاته تعالى إلا كالنفس أو الروح عند الإنسان، فمن رأى الإنسان فكأنما رأى الله وما أقرب الشبه بينهما.

ولما كانت النفس وفق الحديث مصدر معرفة الله أو أن معرفته تعالى تابعة لمعرفة النفس قال ابن عربي: "فهو – أي الله – أصل في وجودنا، فرع في علمنا به"[٨٧]. وهذا معناه أن معرفتنا بالله من نواتج معرفتنا بأنفسنا، فالأصل في المعرفة هي النفس وما يسمى بمعرفة الله هو فرع من معرفة النفس "فإذا نظرت فيه – تعالى – وتركت نفسي فما تأدبت"[٨٨]، "فإن النفس بحر لا ساحل له لا يتناهى النظر فيها دنيا وآخرة وهي الدليل الأقرب. فكلما ازداد نظراً ازداد علماً بها"[٨٩]. فالمشكلة المعرفية بالله هي مشكلة مع النفس أو في التعرف عليها، فهي الدليل على الله "فمعرفتنا بالرب تحدث عن معرفة بالنفس لأنها

---

[٨٤] - ص٢١٥ ج١ فصوص الحكم
[٨٥] - ص١٢٥ ج١ الفتوحات المكية
[٨٦] - ص٤٢٣ ج٤ بـ٥٥٩ نفسه
[٨٧] - ص١٤٧ ج٤ بـ٥٠٨ نفسه
[٨٨] - ص٦٧ ج٤ بـ٤٥٢ نفسه
[٨٩] - ص٦٨ نفسه

الدليل من عرف نفسه عرف ربه، وإن كان وجود النفس فرعاً عن وجود الرب فوجود الرب هو الأصل"[٩٠]. فمن ناحية الوجود فإن الرب هو الأصل والنفس فرع، أما من ناحية المعرفة فالنفس هي الأصل، فكما أن النفس تعرف كواحد في كثير كذلك بالقياس يعرف الله كواحد في كثير، وهو المعنى من قول ابن عربي ما ثم إلا الله أو ليس في الوجود إلا الله على حد تعبير الغزالي، "فمن عرف نفسه عرف ربه، وما عرف نفسه – أي الإنسان – إلا واحداً في كثير أو كثير في واحد كذلك فلا يعرف ربه إلا بصورة معرفته بنفسه"[٩١].

أما من ناحية علاقة الفناء بالمعرفة فالشبه قائم بين معرفة الله ومعرفة النفس، فمن قصد التعرف إلى النفس فله الفناء عن أرديتها وبفناء الأردية أو الحجب يكون الوصول إلى معرفة الخالق "واعلم أن الأجسام كما يقول نواوي الأرواح ومذاقتها "أي وسائلها في الإدراك" وهي – أي الأجسام – التي حجبتها أن تشهد وتشهد فلا تُرى ولا تَرى إلا بمفارقة هذه الضرائح فناء عنها لا انفصالاً. فإذا فنيت النفس عن شهودها أي عن شهود الأجسام – وهي ذات بصر – كشفي – شهدت موجدها بشهودها نفسها فمن عرف نفسه عرف ربه كذلك من شهد نفسه شهد ربه فانتقل من يقين علم إلى يقين عين"[٩٢]. فمشاهدة الله تأتي من إدراك النفس لذاتها بعد الفناء عن الحجب أو الأردية أو أن معرفة النفس المخبوءة لم تكن إلا بعد الفناء عن الحجب كذلك هي معرفة الله لأن "الحق مخبوء في الخلق من كونه نوراً، فإذا قدحت زناد الخلق بالفكر ظهر

---

[٩٠] - ص٤٠ ج٢ بـ٧٣ نفسه
[٩١] - ص٣٦٩ ج٣ نفسه
[٩٢] - ص٣٨٩ – ٣٩٠ ج٣ بـ٣٦٩ نفسه

نور الحق من عرف نفسه عرف ربه-. فإذا بطن سبحانه فليس كمثله شيء وإذا ظهر فهو السميع العليم"[٩٣]. فما ظهر إلا الله وما بطن إلا ذاته، فالله هو الجسم أو العالم كله والذات هي الروح وهكذا هو الإنسان في علاقة الجسم بالنفس، وبتلك المشابهة أو بالتعرف إليها يكون العلم بالله، بينما مشاهدة الله هي يقين إدراك عينه تعالى دونما استدلال بالنفس أو سواها من الوسائط.

فهذا الحديث كما رأينا ذا صلة بالأصول الرئيسية للتصوف، وهو ثابت وصحيح كشفاً أو وفق شروطهم لقبول الأحاديث الصحيحة، كما أن إنكار صحته يعني إنكار الرياضات والفصل بينها وبين السلوك في المقامات العرفانية، وإنكار وحدة العقائد التي قالوا بها، وإنكار الوجود المتصل المؤدي إلى وحدة الوجود أو الخالق والمخلوق، وإنكار معنى الشبه الذي أعطوه الدور الأعظم في تبرير العرفان الغنوصي، وإنكار تجوهر الإنسان أو تحوله إلى طبيعة الملائكة الذي فيه الملاءمة مع الملأ الأعلى او العقول المفارقة أو الملائكة للأخذ عنهم، وبالإجمال فإن هذا الحديث إن صح التعبير يعد من الأقوال التي كان لها التعبير عن كلية المنهج الباطني في المعرفة، حتى إن نزعنا كل ما له علاقة بالإنكار بنزعنا للحديث المزعوم فإننا عندئذ نكون قد نزعنا الظاهرة الصوفية، وهذا ما لا يرضاه صوفي قط، ولذلك نسبوه إلى الرسول ﷺ ليكون حجة على المسلمين.

---

[٩٣] - ص٣٩٢ نفسه

ـ الحقيقة المحمدية:

من المعلوم فلسفياً أن "أفلوطين" صاحب نظرية الفيض في صدور الخلق قال بأن "العقل الكلي" أو "الأول" هو أول فيوضات الذات الإلهية ومن فيض هذا العقل استمر صدور كل ما بعده. وهكذا كان الخلق أو الصدور عنده دونما حاجة إلى "العدم" أو إلى القول بالخلق من العدم.

وأرباب المسيحية تأثروا بهذه النظرية حتى جعلوا من عيسى عليه السلام مساوياً للعقل الأول، وبالطبع بعد استبدالهم للعقل كمصطلح بمصطلح "الكلمة" و"الابن" فهو الكلمة التي تجسدت في الوجود، وبذلك أصبح عيسى مسؤولاً عن الأرزاق وعن الخلق والإيجاد والحفظ ولولاه كما يقولون لانعدم الوجود.

وهذا العقل نراه أيضاً عند الفرس "ذا طبيعة إلهية"[٩٤]، "إنه الإنسان الأول" و"الكيومرث" عند المزدكية. والإنسان القديم عند المانوية"[٩٥]، وله عندهم وظائف كونية "وعن أجزائه الثمانية – مثلاً – نشأت المعادن الثمينة"[٩٦].

وهذا العقل هو نفسه "الإنسان الفاضل. عند إخوان الصفا"[٩٧]، والمتصوفة سموه "الإنسان الكامل أو القطب الباز"[٩٨] أو "الحقيقة المحمدية"

---

[٩٤] ـ ص٣٢ الإنسان الكامل في الإسلام
[٩٥] ـ ص١١٧ نفسه
[٩٦] ـ ص٢٥ نفسه
[٩٧] ـ ص١٥٦ التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق
[٩٨] ـ ص٢١٨ الحلاج شهيد التصوف الإسلامي

أو "الروح الأعظم- وهو العقل والقلم الأعلى والنور المحمدي"[٩٩] و"الكلمة" وهو "الحكيم المتأله" عند شهاب الدين السهروردي، و"المحقق" عند ابن سبعين، و"القطب" عند ابن الفارض "وهو الحقيقة- عند البدوي والدسوقي"[١٠٠]، و"المطاع"[١٠١] عند الغزالي حسب المشكاة.

إن القول بقدم محمد ﷺ أو بأزلية نوره مستند "إلى أحاديث يظهر أن أكثرها موضوع، من ذلك أن النبي ﷺ قال: "أنا أول الناس في الخلق"، "أول ما خلق الله نوري"، "كنت نبياً وآدم بين الماء والطين"، وغير ذلك من الأحاديث التي استنتجوا منها أنه كان لمحمد ﷺ وجوداً قبل وجود الخلق وقبل وجوده الزماني في صورة النبي المرسل في مكة، وأن هذا الوجود قديم غير حادث وعبَّروا عنه بالنور المحمدي"[١٠٢].

والحقيقة المحمدية أو النور المحمدي عندهم هو "مبدأ الحياة ومركزها، وهو من جهة أخرى الواسطة بين الله وعباده والمنبع الذي يفيض منه على العارفين"[١٠٣].

أما عن "حديث القبضة المروي عن جابر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول شيء خلقه الله؟ فقال: نور نبيك يا جابر، خلقه ثم خلق

---

[٩٩] - ص٢٦٥ التصوف في شعر ابن الفارض
[١٠٠] - ص٦٦ الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي
[١٠١] - ص٥ ج٢ فصوص الحكم
[١٠٢] - ص٣١٩ ج٢ فصوص الحكم
[١٠٣] - ص١٥٩ في التصوف الإسلامي وتاريخه

منه كل خير وخلق-."[104]. وهذا الحديث كما يقول ابن عجيبة: وإن كان ضعيفاً فله شواهد تعضده منها حديث عمر رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ: يا عمر أتدري من أنا؟ أنا الذي خلق الله تعالى أول كل شيء نوري، فسجد له الملائكة- أتدري من أنا؟ أنا الذي خُلق العرش من نوري والكرسي من نوري واللوح والقلم من نوري والشمس والقمر من نوري ولا فخر-. وعن جعفر الصادق قال: أول ما خلق الله نور محمد ﷺ قبل كل شيء-."[105].

ولم يكن المتصوفة معتمدين على الأحاديث الموضوعة في قولهم بالحقيقة المحمدية فقط، وإنما اتخذوا أيضاً "الأثر اليهودي القائل بأن الله تعالى خلق آدم على صورته، أي على الصورة الإلهية"[106]، ونسبوه عمداً "إلى النبي عليه السلام"[107] للمساواة بين الله ومحمد في حقيقته.

"ولعل بعض القائلين بالحقيقة المحمدية يستدلون بحديث "أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر" وهو حديث موضوع"[108]، إلا أن الموازين التي تقيم الأحاديث غير ملزمة للصوفي الذي يملك موازينه الخاصة به وكل حديث موضوع على الأقل ربما ثبت لديه عن طريق الكشف وإلى ما هنالك من الأساليب. والمهم في المسألة من الناحية الإسلامية أن القول بالحقيقة المحمدية التي قالها الغلاة في البدء والمتصوفة أخيراً وبغض النظر عن الصحيح

---

[104] - ص٢١٦ ج٢ الفتح الإلهي
[105] - ص٢١٧ ج٢ نفسه
[106] - ص٣٥ ج١ فصوص الحكم
[107] - ص٣٥ نفسه. هامش
[108] - ص٧٧ التصوف بين الحق والخلق

والموضوع من الأحاديث، فيها معارضة للأصول والمبادئ الرئيسية للإسلام حيث لا قديم إلا الله تعالى ولا خلق إلا من العدم ولا تأليه لإنسان مهما تكن درجته.

الحقيقة المحمدية عند الصوفي تتميز بكونها مصدر الخلق أو الوجود حتى أن "ابن برجان" سماها أو سمى محمد ﷺ "بالحق المخلوق به"[١٠٩]، ولقد قال ذو النون المصري: "أصل الخلق نور محمد"[١١٠]، والشيخ محمد أبو المواهب الشاذلي يقول: لقد أكرم الله آدم عليه السلام "بظهور صورته بسمة محمد صلى الله عليه وسلم وذلك أن رأس آدم عليه السلام ميم ويديه حاء وسرته ميم ورجليه دال، وكذا كان يُكتب في الخط القديم"[١١١]. وهذا معناه أن آدم هو أول مظاهر أو تجليات الحقيقة المحمدية في الوجود المادي بالنسبة للأنبياء أو الرسل، والشيخ سهل التستري بمصطلح "العدل أو السبب الأول"[١١٢] قال: أن محمداً هو أول مخلوق لله ففي رأيه أن "لله ثلاثة أنوار. أول وثان وثالث، فالأول محمد الحبيب ﷺ. فآدم خلقه الله من نور محمد، وخلق المُرادين من آدم وخلق المريدين من نور المُرادين"[١١٣]، ونور محمد ﷺ مجمع الأنوار التي يشتق منها نور الأنبياء ومن ثم كانت علاقته بغيره من الأنبياء علاقة الكل بأجزائه، أو الشمس بأشعتها"[١١٤]، "فنور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من نوره، ونور

---

[١٠٩] - ص٣٠٣ من التراث الصوفي
[١١٠] - ص٣٦٥ الصلة بين التصوف والتشيع
[١١١] - ص٨٠ – ٨١ ج٢ الطبقات الكبرى
[١١٢] - ص٣٠٣ من التراث الصوفي
[١١٣] - ص١٨٢ الصلة بين التصوف والتشيع
[١١٤] - ص٣٠٢ من التراث الصوفي

الملكوت من نوره، ونور الدنيا والآخرة من نوره"[115]، "فالنبي محمد هو الأب الروحي لآدم عليه السلام على حين أن آدم هو الأب الجسدي أو البدني لمحمد ﷺ"[116]، ومن أجل عمود النور الذي قال به فسر قوله تعالى "قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. أن النور هو محمد ﷺ والكتاب هو القرآن"[117] فمحمد هو السبب الأول حسب رأيه أو العقل الأول حسب فلسفة الفيض الذي منه كان الوجود وقد تلقى التستري هذه الحقيقة كما يقول أو كما زعم من الخضر عليه السلام الذي أخبره "أن النبي محمداً ﷺ قد خلق من نور الله وبيديه صوَّره، لقد ضل هذا النور في حضرة الله مئة ألف من السنين وفي كل يوم يضفي عليه الله من ضياء وبهاء نَظر به المزيد والشرف وأن مِن هذا النور خُلقت جميع الأشياء"[118]، فهذه "الحقيقة التي بدأ الله بها الأشياء هي التي يختم بها. ولذلك كان الرسول خاتم الأنبياء، فحقيقة النبي هي ألف وباء الخلق والوجود"[119].

التكوين على الصورة الإلهية هذا الأثر اليهودي أخذه الحلاج أيضاً"[120] وجعل "المحمد ﷺ حقيقتين إحداهما قديمة وهي النور الأزلي الذي كان قبل الأكوان ومنه استمداد كل علم وعرفان، والأخرى حادثة وهي محمد باعتباره نبياً مرسلاً وُجد في زمان ومكان معينين. وأنوار النبوة من نوره برزت وأنوارهم من نوره ظهرت. ووجوده سبق العدم، واسمه سبق القلم لأنه كان قبل

---

[115] - ص٣٠٨ نفسه
[116] - ص٣٠٤ نفسه
[117] - ص٣٠٢ نفسه
[118] - ص٢٩٧ نفسه
[119] - ص٢٩٨ نفسه
[120] - ص١٥٩ في التصوف الإسلامي وتاريخه

الأمم"[١٢١]، فقد "كان مذكوراً قبل القبل وبعد البعد"[١٢٢]، "فالنور المحمدي مصدر الخلق جميعاً، فمنه صدرت الموجودات، ومن نوره ظهرت أنوار النبوات. ولولاه ما كانت شمس ولا قمر ولا نجوم ولا أنهار"[١٢٣]، "والعلوم كلها قطرة من بحره. والأزمان كلها ساعة من دهره"[١٢٤].

فمحمد في حقيقته هو الخالق وهو مصدر كل المعارف، وما الأنبياء إلا تجلياته في الزمان، وبمحمد بن عبد الله البشري ختمت النبوة، والأولياء هم الآخرون من تجلياته التي لا حد لها، حتى بعد موت محمد البشري هم الورثة وعن الحقيقة المحمدية آخذون معارفهم.

أما الغزالي القلق كعادته فقد حاول نفي أزلية محمد ﷺ بقوله: "وأما قوله عليه السلام كنت نبياً وآدم بين الماء والطين. تفسيره كان نبياً في التقدير. ولا تفهم هذه الحقيقة إلا بأن تعلم أن للدار مثلاً وجودين في ذهن المهندس ودماغه حتى كأنه ينظر إلى صورة الدار. ووجودها خارج الذهن في الأعيان. فإذا فهمت نوعي الوجود فقد كان نبياً قبل آدم عليه السلام بمعنى الوجود الأول والتقديري دون الوجود الثاني الحسي العيني"[١٢٥]. وهو تفسير لا غبار عليه من ناحية المبادئ الإسلامية وكل ما يمكن استفادته يقيناً من هذا الخبر أو المعنى

[١٢١] - ص١٥٨ مدخل إلى التصوف الإسلامي
[١٢٢] - ص٣٠٤ دراسات في التصوف الإسلامي
[١٢٣] - ص٢١٧ الحلاج شهيد التصوف الإسلامي
[١٢٤] - ص٣٠٥ دراسات في التصوف الإسلامي
[١٢٥] - ص٩٨ المظنون الصغير

أن النبوة اصطفاء وقرار إلهي حتى قبل وجود النبي أو حتى قبل أي معنى لوجود الرياضات التي لم يتعرفها بعد حتى آدم نفسه.

وللغزالي أيضاً رأي في المأثور القائل: "خلق الإنسان على صورته" ورأيه هذا يشير إلى محاولة المتصوفة في وقت مبكر لمساواة هذا الأثر بقوله تعالى: "ليس كمثله شيء" كما فعل فيما بعد ابن عربي وعبد الكريم الجيلي وأمثالهما ممن قالوا بالحقيقة المحمدية أو الإنسان الكامل، يقول الغزالي: لا، فالكامل ليس مثل الله "إن ذلك خطأ" "ليس كمثله شيء" ولا يجوز أن يستدل فيقال فيه إثبات المثل إذ قال تعالى: "ليس كمثله شيء" كما يقال ليس كولده أحد إذ فيه إثبات الولد"[١٢٦]. إلا أن الغزالي رغم قوله بالمطاع الذي "يمثل الصورة المثالية التي يسمونها الحقيقة المحمدية أو الروح المحمدي"[١٢٧] لم يكن جديراً بالمقارنة كما يقول "نيكلسون" مع الواصلين من الأولياء حتى أن الشيخ عبد القادر العيدروس في "تعريف الأحياء بفضل الإحياء" يرى أن مدة القطبية للغزالي كانت ثلاثة أيام"[١٢٨] فقط، فأين هو ممن كان كاملاً مذ ولادته أو قبلها أو في معظم عمره، فالرجل بنظر الأولياء معذور بنقصه ولو كان له الوصول لاستقام مع أصول الظاهرة الصوفية غير آبه بغيرها على الإطلاق.

وابن سبعين بعد قوله بالحقيقة المحمدية رأى نفسه واحداً من تجلياتها فهو الكامل أو "المحقق" على حد تعبيره "فالمحقق عنده هو أكمل أفراد

---

[١٢٦] - ص١٧ المقصد الأسنى
[١٢٧] - ص١٤٧ في التصوف الإسلامي وتاريخه
[١٢٨] - ص٩ ملحق إحياء علوم الدين

الإنسان هو المتحقق بالوحدة المطلقة "أو بوحدة الوجود" وهو متميز عن كل من سبقه"[١٢٩]، وكما أن خاتم الأولياء عند ابن عربي كان ولياً وآدم بين الماء والطين كذلك يقول ابن سبعين: إن حقيقة المقرب لا أول لها إلا من الأول الحق، ولا آخر لها إذ هي ببقاء الحق"[١٣٠]، ولهذا نسب إلى نفسه ناحيتين تماماً كالحقيقة المحمدية: "إحداهما ابن سبعين المحقق الذي ظهر في زمان ومكان معينين، والثانية ابن سبعين المحقق من حيث أن له حقيقة روحانية قديمة محيطة بالكل، ويُرد إليها كل عرفان ووجود، ويعبر ابن سبعين بلسان هذه الحقيقة الأخيرة قائلاً في "الألواح" هذه الأخبار كلها، وهذه الطوائف فيَّ وأنا القائل لها وأنا كنت ولما كانت بعد- وجميع المذاهب التي فرعها خبري هي من جميع تطوراتي"[١٣١]، "أنا هو الوجود في كل مكان أنا"[١٣٢].

ومن مميزات الإنسان الكامل عند الرفاعي قبول دعائه ومعرفته لأسرار الخلق أو ضمائرهم، وفي ذلك يقول: "ويعرف الإنسان الكامل بقبول دعائه- ويَعرف حاجة كل واحد وضميره من قبل أن يذكره له"[١٣٣]، وعن قِدم الحقيقة المحمدية والوجود يقول: "سطر الاسم المحمدي على صحائف الأكوان من أم زيق الأزل إلى حاشية الأبد"[١٣٤]، وهذا معناه أن "الاسم المحمدي والأكوان

[١٢٩] - ص١٩١ ابن سبعين وفلسفته الصوفية
[١٣٠] - ص٢٠٠ بد العارف
[١٣١] - ص٢٧٤ ابن سبعين وفلسفته الصوفية
[١٣٢] - ص٢٧٥ ــ ٢٧٦ نفسه
[١٣٣] - ص١٥٧ قلادة الجواهر
[١٣٤] - ص١٩٧ التصوف بين الحق والخلق

أزليان غير حديثين"[١٣٥]، والغزالي الذي كفَّر في كتابه "تهافت الفلاسفة" الفلاسفة الذين قالوا بالقِدم لغير الله تعالى، اعترف بأن القول بهذا القدم من عقائد مشايخ التصوف ومن ثم أصبح من عقيدته التي أخذ بها.

وعن كون الأنبياء مجالي للحقيقة المحمدية، وعن كون الحقيقة المحمدية مصدر الخلق والإيجاد يقول الرفاعيون: "وكل من تقدم من الأنبياء الكرام والرسل العظام عليهم الصلاة والسلام فهم نواب عنه ﷺ وهو أولهم خلقاً وآخرهم بعثاً، فإنه ﷺ خلقت أنواره قبل خلق آدم فهو سابق عليه في الوجود- ولذلك أشار بعضهم بقوله على لسان حال سيدنا محمد ﷺ:

"وإني وإن كنت بن آدم صورة فلي فيه معنى شاهد بأبوتي"

وكيف لا؟ وهو ﷺ الواسطة العظمى لإيجاد هذه الأمم ولولاه لم يخلق الله آدم ولا غيره فهو الواسطة لإيجادنا"[١٣٦]، والدباغ يقول: "إن أول ما خلق الله تعالى نور سيدنا محمد ﷺ ثم خلق منه القلم والحجب السبعين وملائكتها، ثم خلق اللوح، ثم العرش والأرواح والجنة والبرزخ"[١٣٧]. وإن شئت المزيد عن تتمة الخلق فارجع إلى الصفحة ١٩٣ ج٢ في الإبريز.

النور المحمدي أو الحقيقة المحمدية أصل الخلق وكمال الوجود فمنذ نزول آدم إلى الأرض مثلاً يقول الرفاعيون: "إن الثمار كانت تسقط قبل

---

[١٣٥] - ص١٩٧ نفسه
[١٣٦] - ص٣٠٦ قلادة الجواهر
[١٣٧] - ص١٨٩ ج٢ الإبريز

النضج وعندما سقاها من نور محمد ﷺ أصبحت ذات ثمر له النضوج"[١٣٨]، فهو وجميع الملائكة بعض نوره ﷺ، وجميعهم وجميع المخلوقات يستمدون المعرفة منه ﷺ"[١٣٩].

فليس من أجل محمد ﷺ أو إكراماً له كان خلق الوجود من العدم، وإنما من روح محمد أو النور المحمدي أو الحقيقة المحمدية الأزلية كان صدور الوجود فيضاً بلا عدم.

وكما قال المتصوفة بالفناء في الشيخ وبالفناء في الله، كذلك قالوا بالفناء في الحقيقة المحمدية وعندها يصبح الصوفي ناطقاً بلسانها وكأنه هي بلا فرق "ويتحدث ابن الفارض في "التائية" بلسان الجمع أو الفناء في الحقيقة المحمدية قائلاً:

"وروحي للأرواح روح وكل ما ... ترى حسناً في الكون من فيض طينتي
وكلهم عن سبق معناي دائر ... بدائرتي أو وارد من شريعتي
وإني وإن كنت ابن آدم صورة ... فلي فيه معنى شاهد بأبوتي
ولولاي لم يوجد وجود ولم يكن ... شهود ولم تعهد عهود بذمة
فلاحي إلا عن حياتي حياته ... وطوع مرادي كل نفس مريدة"[١٤٠]

---

[١٣٨] - ص١٩٢ ج٢ نفسه
[١٣٩] - ص٢٠٨ ج٢ الإبريز
[١٤٠] - ص٢٧٠ مدخل إلى التصوف الإسلامي

وفي هذه الأبيات وأمثالها نراه وقد جمع فيها كل عناصر ومعنى الحقيقة المحمدية من حيث هي مصدر الوجود عن طريق الفيض، ومن حيث كونها المصدر العرفاني المتمثل في الأنبياء والأولياء وكل من كان ذا علم مهما يكن حامله فيلسوفاً كان أو نبياً أو ساحراً.

والشيخ عبد الغني النابلسي يقول: "ورد في الحديث: أن أول ما خلق الله تعالى نور النبي ﷺ ثم خلق منه كل شيء"[١٤١]، "فالنور المحمدي هو المخلوق من نوره كل شيء"[١٤٢]، واعلم أيضاً أن "الحقيقة المحمدية التي هي نور الله أول مخلوق، وهو النور الثاني من قوله تعالى "نور على نور" وكل شيء مخلوق من ذلك النور"[١٤٣].

واعتماداً على حديث جابر المروي في كتاب "إبراز المكنون" استعار النابلسي معناه من هناك ليجعله ناطقاً بالمعنى الصوفي المحدود بالعرفان والفيض المؤديان بالنتيجة إلى الإيمان بوحدة الوجود فقال: "فلما أراد الله أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء: فخلق من الجزء الأول القلم، ومن الثاني اللوح، ومن الثالث العرش، ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء فخلق من الأول السموات، ومن الثاني الأرضين، ومن الثالث الجنة والنار، ثم قسم الرابع أربعة أجزاء: فخلق من الأول نور

---

[١٤١] - ص٩٢ شروح رسالة الشيخ أرسلان

[١٤٢] - ص٩١ الصوفية في شعر ابن الفارض

[١٤٣] - ص١٤٦ نفسه

أبصار المؤمنين، ومن الثاني-."[144]، "فالحقيقة المحمدية هي النور المادي الذي خلق الله منه كل شيء"[145]، وهي مصدر العرفان "فإذا وصلت إلى الحقيقة المحمدية وصلت إلى الحق تعالى فلا تحتاج أحداً يعلمك حينئذ"[146]، وطالما أن الفناء أو الوصول يسمح أو يبيح كل المزاعم نرى النابلسي هو الآخر يقول على الحقيقة في حق نفسه:

"أنا كل الوجود والكائنات أنا كل الأرواح كل الذوات

ليس كل الوجود إلا أسامي والمسمى بكل ذلك ذاتي

والتباسي عليك حيث لباسي كل شيء يلقيك في الآفات"[147]

ولم لا! إن كان القطب على الحقيقة هو النائب للحقيقة المحمدية بالفعل، أو هي هو حال الفناء أو الاتحاد.

وابن قضيب البان هذا الإنسان الكامل قد اتخذ عقيدته في الحقيقة المحمدية عن الله مباشرة فلا ضرورة لديه بالاستعانة بالأحاديث الموضوعة ولا حاجة به للتأويلات المشبوهة، وفي ذلك يقول: "وقال لي سبحانه: القطب الفرد الواحد في كل زمان الحقيقة المحمدية ولكل زمان قطب منها"[148] يكون نائباً عنها، وعن نيابة القطب أو الولي الكامل يقول

---

[144] - ص١٥٩ التصوف في شعر ابن الفارض

[145] - ص١٨٥ نفسه

[146] - ص٩٣ شروح رسالة الشيخ أرسلان

[147] - ص١٧٥ – ١٧٦ نفسه

[148] - ص١٩٠ الإنسان الكامل في الإسلام

عن نفسه: "أوقفني الحق على بساط القطبية وقال لي: الإنسان الكامل قطب الشأن الإلهي وغوث الآن الزماني. أسلِّم له الأرض ثم يُسلَّم له المُلك، ثم يجمع له الملك والملكوت. وهذا هو النائب الرحماني. وقال لي: القطب يعرفه كل شيء حتى أهل الغيب وعالم المحال وأهل الأرض البيضاء"[١٤٩]، "وقال لي: قلب القطب خزانة أرواح الأنبياء. وقال لي: الكون كله صورة القطب وأنا ذاته"[١٥٠].

والشيخ برهان الدين الدسوقي يقول في تائيته من حيث هو إنسان كامل:

"أنا القطب المبارك قدره — وأنا مدار الكل من حول ذروتي

ولولا زنادي في الطبيعة قادح — لما قامت الأشخاص من فلك طينتي

وبي فاضت الأنباء من كل ملة — بمختلف الآراء والكل أمتي"[١٥١]

وسواء كان لك إدراك هذا المعنى بمساواة الله بالولي من حيث الخلافة والمثل أو من حيث كونه من تجليات الحقيقة المحمدية أو الحقيقة المحمدية نفسها فسيان وها هو يقول عن قِدمه أيضاً:

"على الدرة البيضاء كان اجتماعنا — ومن قبل خلق الخلق والعرش قد كنا"[١٥٢]

---

[١٤٩] - ص١٨٩ نفسه

[١٥٠] - ص١٩٠ نفسه

[١٥١] - ص١٥٠ الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي

[١٥٢] - ص٢٠٤ التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق

والبوصيري يقول عن تجليات الحقيقة المحمدية بالأنبياء:

"وكل آي أتى الرسل الكرام بها فإنما اتصلت من نوره بهم

فإنه شمس فضل هم كواكبها يظهرن أنوارها للناس في الظلم"[153]

والشيخ محمد البكري يقول عن قبضة النور: إنها "أصل لكل أصل تبدى"[154] أو ظهر. وابن مشيش الشاذلي الطريقة يقول في صلاته مقرراً ربط الحقيقة المحمدية بالخلق والإيجاد والمعرفة: "اللهم صلِّ على من منه انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار. ولا شيء إلا هو به منوط، إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط"[155]، ويقول البوصيري عن محمد صلى الله عليه وسلم أيضاً:

"فإن من وجودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم"[156]

والشيخ مصطفى البكري يقول: "وصلِّ وسلم وبارك على عين الأعيان وسبب في وجود كل إنسان"[157]. فمحمد ﷺ برأيه هو عين الأعيان أو المادة التي كان منها الوجود حتى وجود الإنسان. والحلواني في قصيدته "المستجيرة" يقول:

---

[153] - ص٢٠٠ ج١ نفسه
[154] - ص٢٠٢ نفسه
[155] - ص٢٠٤ نفسه
[156] - ص٢١٧ ج٢ الفتح الإلهي
[157] - ص٢٠٤ التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق

"أنشاك نوراً ساطعاً قبل الورى فرداً لفرد والبرية في العدم
ثم استمد جميع مخلوقاته من نورك السامي فيا عظم الكرم" [158]

ومن الملاحظ على عقيدة الحقيقة المحمدية بالإجمال:

١ – أنها غلو في محمد ﷺ إلى حد ربطه بالقِدم الإلهي.

٢ – إنها لإنكار الخلق من العدم لصالح نظرية الفيض وصولاً إلى وحدة الوجود.

٣ – إنها لتبرير وحدة العقائد حيث كل العقائد مهما كان شأنها كائنة بالمصدر عن محمد ﷺ في حقيقته.

٤ – إنها لتأليه الأولياء بما نسبوه إلى محمد ﷺ، أو بمساواة أنفسهم بالحقيقة المحمدية عبر مصطلح النيابة والوراثة والفناء والقطبية وإلى ما هنالك.

---

[158] - ص٨٥ التصوف بين الحق والخلق

ـ عبد الكريم الجيلاني والحقيقة المحمدية:

الجيلاني يستشهد بالقرآن في تقريره للحقيقة المحمدية أو الإنسان الكامل، فمعنى قوله تعالى: "ذلك الكتاب" برأيه "هو الإنسان الكامل"[١٥٩]، وفي تفسيره لاسم "الله" وفق علمه بالحروف يقول: إن الهاء من هذا الاسم "إشارة إلى هوية الحق الذي هو عين الإنسان. قال الله تعالى: "قل" يا محمد "هو" أي الإنسان الله فهاء الإشارة في "هو" ترجع إلى فاعل "قل" وهو أنت. قال الله تعالى "والله هو الولي" يعني الإنسان الكامل. فهو حق في صورة خَلْقية أو خَلْق متحقق بمعاني إلهية"[١٦٠]، "فإذا تنزلت الذات عن سذاجتها وصرافتها كان لها ثلاث مجال أو تجليات إلهية هي: الأحدية، الهوية، الإنية. وبالنسبة للأحدية فرق بين الأحدية والواحدية حيث أن الأحدية هي مجلى "كان ولا شيء معه" والواحدية مجلى "وهو الآن على ما عليه كان". أما الهوية فهي غيب الله. هو. والإنية هي المجلى الثالث وهي ما يشير إليه تعالى بلفظة أنا"[١٦١].

فعين الإنسان إذن هي هوية الحق، والكامل هو الأحد، والله هو الولي، والولي إله بصورة بشرية، ففي مجلى الهوية يكون الله غيباً أو مدرجاً في الإنسان الكامل وهو عينه وبذلك كان تفسيره لاسم الله، وفي

[١٥٩] ـ ص٩٠ ج٢ بـ٦٣ الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل
[١٦٠] ـ ص١٩ ج١ نفسه
[١٦١] ـ ص٨٢ الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي

مجلى الأحدية يكون الله هو الإنسان الكامل بمصطلح "الله الإنسان" أو الولي هو الله، وفي مجلى الواحدية يكون الله هو كل شيء أو لا وجود إلا الله، أما بالنسبة لمجلى الإنية فكائن بقول الله على لسان أهل الفناء بـ "أنا" أو "أنا الله" أو "سبحاني ما أعظم شأني"، وتلك هي وجوه تأليه الإنسان الكامل نبياً كان أو ولياً وصل إلى وحدة الوجود.

العقل الأول عند أفلوطين أو الملك الأول هو الفيض الأول عن الذات الإلهية، والجيلاني يقول: "اعلم أن هذا المَلَك المسمى في اصطلاح الصوفية بالحق المخلوق به والحقيقة المحمدية"[١٦٢]، له "أسماء كثيرة على عدد وجوهه: يسمى بالقلم الأعلى وبروح محمد ﷺ وبالعقل الأول وبالروح الإلهي- ولقد اجتمعتُ به في بعض الحضرات الإلهية- فقال: أنا الولد الذي أبوه ابنه، والخمر الذي كرمه دنه، أنا الفرع الذي أنتج أصله- وجدتني أب الجميع وأم الكبير والرضيع"[١٦٣]، ولقد "خلق الله تعالى العالم جميعه من نور محمد ﷺ"[١٦٤]، "واعلم أن روح القدس هو روح الأرواح وهو المنزه عن الدخول تحت حيطة "كن" فلا يجوز أن يقال فيه إنه

---

[١٦٢] - ص٩ ج٢ بـ٥١ الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل
[١٦٣] - ص١١ نفسه
[١٦٤] - ص١٦ ج٢ بـ٥٢ نفسه

مخلوق لأنه وجه خاص من وجوه الحق- لأنه روح الله- وروح الله الشيء نفسه فالوجود قائم بنفس الله ونفسه ذاته"[١٦٥].

فمحمد ﷺ في حقيقته هو روح الله، وروح الله غير مخلوق، و "كن" التي للخلق والإيجاد حسب القرآن لا علاقة لها بإيجاده والعالم لا قيام له إلا بالحقيقة المحمدية أو أن العالم هو هي، وهكذا هي وحدة الوجود التي جمعت المخلوق والخالق على مراتب الفيض.

وليس محمداً أباً لآدم فقط، بل "وكان محمد ﷺ أباً لجبريل وأصلاً لجميع العالم"[١٦٦]، "وخلق الله عزرائيل من نور وَهْم محمد ﷺ"[١٦٧]، ولما كان محمد ﷺ أم الكتاب- خلق الله منه جميع العالم"[١٦٨]، ومنه خُلقت الجنة والنار، "فالله خلق الصورة المحمدية من نور اسمه البديع القادر ونظر إليه باسمه المنان القاهر ثم تجلى عليه باسمه اللطيف الغافر، فعند ذلك تصدعت لهذا التجلي صدعين فصارت كأنها قسمت قسمين، فخلق الله الجنة من نصفها المقابل لليمين وجعلها دار السعادة للمنعمين، ثم خلق النار من نصفها المقابل للشمال وجعلها دار الأشقياء"[١٦٩]، وكذلك "خلق الملائكة العالين- من نفس محمد ﷺ- وخلق إبليس وأتباعه- من نفس محمد ﷺ، وكان اسمه

---

[١٦٥] - ص٨ ج٢ بـ٥٠ نفسه
[١٦٦] - ص١٨ ج٢ بـ٥٣ نفسه
[١٦٧] - ص١٩ ج٢ بـ٥٤ نفسه
[١٦٨] - ص٢٣ ج٢ بـ٥٥ نفسه
[١٦٩] - ص٢٩ ج٢ بـ٥٨ نفسه

عزازيل"[170]، "وجميع الملائكة المقربين مخلوقون منه مثل إسرافيل وجبريل-. وهؤلاء هم العالون"[171]، واعلم بأن نور محمد أو "لما نزل هذا النور وأخذ بين العالم في الظهور، خلق الله من ظهوره الحنطة فأكلها آدم فخرج بها من الجنة"[172] ويقول أيضاً:

"ليس الوجود بأسره إن حققوا — إلا حباباً طفحته بنانه
وتطيعه الأملاك من فوق السماء — واللوح ينفذ ما قضاه بنانه"[173]
" هو هاؤه هو واوه هو باؤه — هو سينه والعين بل إنسانه
ميكال طسط موجة من بحره — وكذاك روح أمينه وأمانه
والعرش والكرسي ثم المنتهى — مجلاه ثم محله ومكانه"[174]

الحقيقة المحمدية أو نور محمد أو الإنسان الكامل أو القطب "اعلم – كما يقول – حفظك الله أن الإنسان الكامل هو القطب الذي تدور عليه أفلاك الوجود من أوله إلى آخره وهو واحد مذ كان الوجود إلى أبد الآبدين، ثم له تنوع في ملابس ويظهر في كنائس، فيسمى به باعتبار لباس ولا يسمى به باعتبار لباس آخر، فاسمه الأصلي الذي هو له محمد وكنيته أبو القاسم ووصفه عبد الله ولقبه شمس الدين، ثم له باعتبار ملابس

[170] - ص٣٨ ج٢ بـ٥٩ نفسه
[171] - ص١٠ ج٢ بـ٥١ نفسه
[172] - ص٢١ ج٢ بـ٥٤ نفسه
[173] - ص٤٥ ج٢ بـ٦٠ نفسه
[174] - ص٦٠ نفسه

أسام وله في كل زمان اسم ما يليق بلباسه في ذلك الزمان. فقد اجتمعت به ﷺ وهو في صورة شيخي الشيخ شرف الدين اسماعيل الجبرتي ولست أعلم أنه النبي ﷺ وكنت أعلم أنه الشيخ"[١٧٥]، ثم "ألا تراه ﷺ لما ظهر في صورة الشبلي رضي الله عنه قال الشبلي لتلميذه: اشهد أني رسول الله. وكان التلميذ صاحب كشف فعرفه فقال: أشهد أنك رسول الله وهذا أمر غير منكور"[١٧٦]، ولكن "إياك أن تتوهم شيئاً في قولي من مذهب التناسخ"[١٧٧].

فالحقيقة المحمدية تظهر في صورة كل ذي عقيدة بلا فرق بين نصارى ويهود وهندوس وإسلام، فمحمد هو آدم وهو موسى وبوذا وهو عيسى وهو فرعون وهو الجبرتي والشبلي وداروين ونيتشه، فالعالم كله مخلوق من نوره إنه الجنة والنار إنه عزرائيل وإبليس وأبو جهل والسموات والأرض، ولكنه "لا يتعرَّف ذلك المُلك لأحد من خلق الله إلا إلى الإنسان الكامل- أو الكامل من الأولياء- فإذا عرفه الولي علَّمه أشياء، فإذا تحقق بها صار قطباً يدور عليه رحى الوجود جميعه بحكم النيابة عن الملك والقطبية في هذا الوجود لهذا المُلك بحكم الأصالة"[١٧٨]، وبذلك تكون المساواة بين الصوفي والحقيقة المحمدية من خلال مصطلح

[١٧٥] - ص٤٦ نفسه
[١٧٦] - ص٤٦ نفسه
[١٧٧] - ص٤٧ نفسه
[١٧٨] - ص١٠ ج٢ بـ٥١ نفسه

"النيابة" و"الكامل" وكما كان الأنبياء من صوره وخلفائه كذلك هم الأولياء "وقد جرت سنته ﷺ أنه لا يزال يتصور في كل زمان بصورة أكملهم ليعلي من شأنهم ويقيِّم ميلانهم فهم خلفاؤه في الظاهر وهو في الباطن حقيقتهم"[١٧٩].

- ملاحظة:

الحقيقة أن المتصوفة من حيث هم غنوصيون لم تكن لهم المساواة ما بين محمد ﷺ والعقل الأول الغنوصي إلا لتحقيق مآربهم في أسلمة عقائد الغنوص، وبالحقيقة المحمدية كان لهم ما يلي:

١ – الوصول لتوحيد لا معبود إلا الله الذي فيه المساواة بين العقائد والأديان.

٢ – وبها كان لهم تبرير خوارقهم التي تفوقت على معجزات النبي محمد ﷺ بحجة أنهم الورثة لكل معجزات الأنبياء الذين هم من تجليات الحقيقة المحمدية، وهم عندها الوارثون لمحمد، وبهذا بزعمهم يكون سقوط تفوقهم عليه ﷺ.

---

[١٧٩] - ص٤٧ ج٢ بـ٦٠ نفسه

٣ – ليكون محمد ﷺ في حقيقته حجتهم في زعمهم للألوهية، وما ألوهيتهم عندها إلا بالنيابة عن محمد الإلهي أو بالوراثة له أو الاتحاد معه أو اتباعاً لسنته.

٤ – إنكار الخلق من العدم واستبداله بالصدور عن طريق الفيض، وإنكار الفرق بين الخالق والمخلوق، وما الله عندها إلا الكل الموجود ولا موجود عندها إلا الله قمة الوصول في الغنوص.

٥ – الهروب من الاحتجاج عليهم بنسبة عقائدهم إلى غنوص ما قبل الإسلام لأن أعلامه بزعمهم من تجلياته ﷺ.

ـ الحقيقة المحمدية والإنسان الكامل عند ابن عربي:

كل الذين نفوا الخلق من العدم، كل الذين آمنوا بوحدة الوجود التي هي قمة الوصول في التصوف، استعاروا من فلاسفة الفيض قولهم بالعقل الأول وجعلوه مسلماً ونعتوه بمحمد أو حقيقة محمد. ودونما إنكار اعترفوا بفعلتهم هذه، وابن عربي يقول أن الفيض الأول أو العقل الأول أو الحقيقة المحمدية التي فاض عنها كل شيء أو "المفعول الإبداعي الذي هو الحقيقة المحمدية عندنا هو العقل الأول عند غيرنا، وهو القلم الأعلى الذي أبدعه الله تعالى من غير شيء"[١٨٠]. فالعقل الأول عند الفلاسفة الغنوصيون هو نفسه محمد ﷺ ولكن في حقيقته، إنه الحقيقة المحمدية!

ـ **الإنسان الكامل والإنسان الحيوان:** لقد ميز ابن عربي شأنه في ذلك شأن كل أولياء الغنوص بين نوعين من البشر أو بين الملوك والعوام، النوع الأول هم الكمل أو الإنسان الكامل، والنوع الثاني وهو الحيوان أو الإنسان الحيوان، وعن المشترك ما بين الصنفين يقول ابن عربي: "فيشترك الإنسان الحيوان مع الكامل في الأدوات الصناعية التي بها يتوصل إلى مصنوع ما مما يُفعل بالأيدي، ويزيد الكامل عليه الفعل بالهمة فأدواته همته وهي له بمنزلة الإرادة الإلهية إذا توجهت إلى إيجاد شيء فمن المحال أن لا يكون ذلك الشيء المراد"[١٨١]، فالكامل "زاد على

[١٨٠] ـ ص٩٤ ج١ بـ٣ الفتوحات المكية
[١٨١] ـ ص٢٩٨ ج٣ بـ٣٦١ نفسه

الإنسان الحيوان في الدنيا بتصريفه الأسماء الإلهية. وأما الإنسان الحيوان فليس ذلك أصله جملة واحدة وإنما حكمه حكم سائر الحيواني- فالإنسان الحيواني من جملة الحشرات"[١٨٢]، "وإنه يشبه الإنسان الكامل في الصورة الظاهرة لا في الباطن من حيث الرتبة كما يشبه القرد الإنسان"[١٨٣]، فالإنسان الكامل "مختصر العالم والحق "أو الله"-. وأما الإنسان الحيوان فإنه مختصر العالم وله يفرغ الحق ليقيم عليه ميزان ما خُلق له فإن قوله سنفرغ لكم أيها الثقلان كلمة تهديد والإنسان الكامل لا يتوجه عليه هذا الخطاب"[١٨٤].

فالمقارنة بين الإنسان الكامل أو القطب أو الولي الصوفي أو محمد في حقيقته والإنسان الحيوان هي مقارنة بين إنسان إلهي وإنسان بهيمي، فالإنسان الحيوان كالقرد كالحشرة وعليه توجه خطاب التكليف وهو المعنى من قوله تعالى: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، وهو المهدَّد بالحساب والعقاب! وهذا كله غير جائز بحق الكامل لأنه كالإله ومن ألوهيته الفعل بالهمة أو بـ "كن" التي بها إيجاد كل ما شاء أو أراد، وإذا ما كان هذا الفرق الشاسع بينهما فليس الإنسان الحيوان عندها إلا للخدمة وأنها سنة الله التي سخرته لخدمة الكامل، وكل "من في السموات ومن في

---

[١٨٢] - ص٢٩٧ نفسه
[١٨٣] - ص٢٦٦ ج٣ بـ٣٥٨ نفسه
[١٨٤] - ص٣١٥ ج٣ بـ٣٦٤ نفسه

الأرض جميعاً- من أجله"[185] أي من أجل الكامل، فالعالم كله مسخَّر له "علوه وسفله وإن الإنسان الحيوان من جملة الحيوان المسخر له"[186]. فالإنسان الحيوان مسخر لخدمة هذا الإله البشري الذي على صورة الله أو الحق "فإذا نظرت إليه – أي إلى الكامل – قلت أنه حق – أو إله – ثم تنظر إليه فتقول أنه خلق ثم تنظر إليه فتقول لا حق ولا خلق ثم تنظر إليه فتقول حق خلق فتحار فيه حيرتك في الله، فحينئذ تعرف أنه قد حصل الصورة وأنه فارق الإنسان الحيوان"[187]، وللإنسان الكامل على الإطلاق يجب أن تسجد الملائكة "لأن الله أمرهم بالسجود له ولم يزل حكم السجود فيهم لآدم وللكامل أبداً دائماً"[188] طالما لا يخلو العالم من كامل، بل ومن الجائز سجود الحيوان أو الإنسان الحيوان لهذا الكامل أو للإنسان الكامل "فإذا كوشف الإنسان على الإنسان الكامل ورأى الحق في الصورة التي كساها الإنسان الكامل يبقى في حيرة بين الصورتين لا يدري لأيتهما يسجد، فيخيَّر في ذلك المقام بأن يتلى عليه فأينما تولوا فثم وجه الله، ففي الإنسان – الكامل – وجه الله من حيث صورته، وفي جانب الحق وجه الله من حيث عينه، فلأي شيء يسجد قُبل سجوده فإن الله يقبل السجود للصورة كما يقبله للعين- فمن أقامه الله بين الصورتين لا يبالي لأيتهما

[185] - ص١٥١ ج٣ بـ٣٣٩ نفسه
[186] - ص٢٦٦ ج٣ بـ٣٥٨ نفسه
[187] - ص٥٦ ج٤ بـ٤٤٣ نفسه
[188] - ص١٥٢ ج٣ بـ٣٣٩ نفسه

سجد"[189]. وفي كلا الحالين يكون على صواب، فالسجود لصورة الحق أو للكامل كأنه السجود لعين الحق سبحانه وتعالى، وما على الحشرات والقرود أو العوام المحجوبون إلا السجود للصوفي ولكن إن أصبحوا من المتصوفة ذوي كشف، ومن الجائز مثلاً السجود لابن عربي حيث يقول: "وعلمت أني من الكمل وأني لست بإنسان حيوان فقط. وعلمت أن العالم كله لولا أنا ما وُجد وأنه بوجودي صح المقصود من العلم الحادث بالله والوجود الحادث"[190]. وأي جحود عندها إن لم يسجد القردة لحافظ الوجود أو لحافظ وجودهم على الأقل؟!

النبي ﷺ من الكمل، والولي الصوفي كامل، وهما في الكمال سواء "لقوله ﷺ – كما يقول ابن عربي – لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول الله الله فأتى به مرتين ولم يكتف بواحدة"[191] كناية على تكرار الكاملين في الوجود، وكما أن محمداً ﷺ على "صورة الله" و"مثله" هكذا يكون الولي إرثاً أو اتباعاً. ولولا ربط المتصوفة لهذه المزاعم بالرسول ﷺ لما انطلت على السذج مزاعمهم في تأليه أنفسهم.

- ملاحظة:

---

[189] - ص١٥٧ ج٣ بـ٣٤٠ نفسه
[190] - ص٢٦٦ ج٣ بـ٣٥٨ نفسه
[191] - ص٢٩٩ ج٣٦١ نفسه

إن عقيدة الإنسان الكامل أو الكوني في حضارات ما قبل الإسلام ذات منشأ سياسي بقصد الفصل ما بين الملوك ورعاياهم تبعاً للطبيعة المختلفة فيما بينهما، فالملوك هم ﷴ، هم الكاملون بنسبهم الإلهي أو لطبيعتهم الإلهية أو لأنهم آلهة أو بالنيابة عنهم أو بالتفويض منهم، من حقهم حكم الحيوانات أو البشر المخلوقون من التراب لخدمتهم وتأمين سعادتهم، وبهذا وبمسؤوليتهم عن إدارة شؤون الكون فلا مكان لطامع في عروشهم أو الانقلاب عليهم.

ـ الكامل على صورة الله:

ولكن من أين كان هذا الجانب الإلهي في الأولياء؟ وللإجابة على هذا السؤال علينا بادئ ذي بدء معرفة أن نعت الإنسان الكامل يطلق على الأنبياء والأولياء سواء، فالوجه الإلهي عند الأولياء كائن بالوراثة عن الأنبياء وعن الفناء في الحقيقة المحمدية أو في الله ولا فرق عندها في التعبير عن هذا الجمع إن قلت بالحلول أو الاتحاد أو وحدة الوجود والصوفي عندئذ هو الله أو الحقيقة المحمدية.

فالحقيقة المحمدية عند ابن عربي كما هو العقل الأول عند أفلوطين "يعدها أول فيض من الذات الإلهية ويعد بقية الموجودات مجرد فيوضات لها"[١٩٢] أو عنها، ولما كان الفيض يعني القول بالقِدم إلى ما سواه تعالى معه قال ابن عربي: "لا يستحيل في العقل وجود قديم ليس بإله فإن لم يكن فمن طريق السماع لا غير"[١٩٣]. أي أنه إذا رفض العقل الفصل بين الألوهية والقدم فعليك بالسماع أو الخبر النبوي طالما لا وجود لقديم غير الله في الخبر النبوي، وبناءً عليه ورفعاً للتضارب لم يبق إلا السماع عن الحق، وبهذا السماع يكون القول بقدم الروح المحمدي كخبر كشفي من لدن الأولياء.

[١٩٢] ـ ص١٤ مقدمة في التصوف

[١٩٣] ـ ص٤٤ ج١ الفتوحات المكية

وبلسان الكشف يقول ابن عربي: محمد ﷺ "أكمل موجود في هذا النوع الإنساني ولهذا بدئ به الأمر وخُتم"[194]، "والإنسان الكامل- هو للحق بمنزلة ظل الشخص من الشخص"[195]، "هو ظل الصورة الإلهية، أو ليس صورة الحق إلا عين هذا الإنسان- والحق روح تلك الصورة فيكون الحق ذا صورة وروح"[196]. أي: إن الله بحبه للظهور في الصورة المادية أصبح روحاً للكامل الذي به ظهر في الوجود وهكذا يكون اجتماع اللاهوت بالناسوت في الولي كما كان في عيسى على ذمة النصارى حتى جعلوه الابن الوحيد لله، "فظاهر الإنسان – عند ابن عربي – خَلق، وباطنه حق، وهذا هو الإنسان الكامل المطلوب"[197] الذي حاز "الصورة الإلهية والصورة الكونية"[198] بين جنبيه "فهو الأول والآخر والظاهر والباطن فخلق الإنسان على هذه المنزلة- فهو الأول بجسده والآخر بروحه والظاهر بصورته والباطن بموجب أحكامه والعين واحدة"[199]، "فبالصورة نال الخلافة والتصريف"[200]، "ومن كونك على صورته – كما يقول – ثبتت العلاقة بينك وبينه فقال يحبهم ويحبونه-. ولا خفاء أن

---

[194] - ص٢١٤ ج١ فصوص الحكم
[195] - ص٣٤٠ ج٣ بـ٣٧١ الفتوحات المكية
[196] - ص١٩٠ ج٣ بـ٣٤٦ نفسه
[197] - ص٢٩٦ ج٣ بـ٣٦١ نفسه
[198] - ص٤٦٨ ج٢ بـ١٩٨ نفسه
[199] - ص٤٧٦ ج٢ بـ١٩٨ نفسه
[200] - ص٦٤٣ ج٢ بـ٢٨٨ نفسه

الشكل يألف شكله وهو الإنسان الكامل"[٢٠١]، "فخرج آدم على صورة الاسم "الله"، إذا كان هذا الاسم يتضمن جميع الأسماء الإلهية كذلك الإنسان وإن صغر جرمه فإنه يتضمن جميع المعاني"[٢٠٢].

ومن هم الكُمَّل الذين على صورة الله؟ يقول ابن عربي: "وإنما هي – أي الصورة – للنفس الكاملة كنفوس الأنبياء ومن كَمُلَ من الناس"[٢٠٣]. فالكامل سواء كان نبياً أو ولياً غنوصياً فهو من حيث الباطن على الصورة الإلهية التي اجتمع فيها كل الأسماء أو الصفات الإلهية، أما من حيث الظاهر أو من حيث الطبيعة المادية أو الجسمية العنصرية فهو على صورة الكون وبه اجتماع حقائقه فإن اجتمعت الصورتان في إنسان فهو الكامل وإلا فهو حيوان اقتصر على الصورة العنصرية فقط.

ولما كان الإنسان الكامل على الصورة الإلهية فهو في تطابق مع الله إلى حد قيامه بنفسه كالإله بلا فرق حيث "أراد ألهو أن يرى نفسه رؤية كمالية تكون لها ويزول في حقه حكم "ألهو" فنظر في الأعيان الثابتة فلم ير عيناً يعطي النظر إليها هذه الرتبة الأنانا إلا عين الإنسان الكامل، فقدرها عليه وقابلها به "فوافقته" إلا حقيقة واحدة نقصت عنه وهي وجودها لنفسها، فأوجدها لنفسها فتطابقت الصورتان من جميع

---

[٢٠١] - ص٦٤١ نفسه
[٢٠٢] - ص١٢٤ ج٢ بـ٧٣ نفسه
[٢٠٣] - ص١٩٥ ج٢ بـ١١٢ نفسه

الوجوه- وسماه إنساناً لأنه أنس الرتبة الكمالية- فبالصورة نال الخلافة والتصريف"[٢٠٤].

فالإنسان الكامل إذن خليفة الله وله التصرف في الكون اعتباراً من حفظه إلى إحداث الزلازل والبراكين وتسيير الجبال، ولم يكن له هذا إلا للشبه الذي بينه وبين الحق تعالى. وبالصورة خرج الله من "ألهو" المغيَّب إلى "الأنا" الحاضر التي يقولها على لسان خليفته، ومن كان على الصورة الإلهية فهو التوأم مع الألوهية "ولظهور الإنسان الكامل بالصورة الإلهية كان شق لها"[٢٠٥]، ويقول: "فالأمر بيننا وبينه "تعالى على السواء مع الفرقان الموجود المحقق بأنه خالق ونحن المخلوقون، وهو الله وأنا الإنسان الخليفة- ولو لم يكن في العالم من هو على صورة الحق ما حصل المقصود من العلم بالحق أعني العلم الحادث في قوله كنت كنزاً مخفياً- والكنز لا يكون إلا مكتنزاً في شيء، فلم يكن كنز الحق إلا في صورة الإنسان الكامل"[٢٠٦]. فالإنسان الكامل إذن يحمل في باطنه الكنز أو الله ولو لم يكن هذا الإنسان موجوداً ما كان لقوله تعالى كنت كنزاً أي معنى ولانعدم انتقاله من "ألهو" المغيب إلى "الأنا" المُدرَك.

---

[٢٠٤] - ص٦٤٢ – ٦٤٣ ج٢ بـ٢٨٨ نفسه

[٢٠٥] - ص١١١ ج٣ بـ٣٣٠ نفسه

[٢٠٦] - ص٢٦٧ ج٣ بـ٣٥٨ نفسه

فقد تجلى الله على الكامل ليكون على صورته "وقال له عند ذلك:-. أنت مربوبي وأنا ربك أعطيتك أسمائي وصفاتي فمن رآك رآني ومن أطاعك أطاعني ومن عَلِمك عَلِمني ومن جهلك جهلني-. فأنت ثوبي وأنت ردائي وأنت غطائي"[٢٠٧]. وهكذا كان ظهور الله أمام الإدراك حتى عُرف!!

فالجانب الإلهي للأولياء يعود بالأصالة لمحمد ﷺ أو للحقيقة المحمدية فآدم خليفة محمد ﷺ والأولياء خلفاء لآدم وبهذه الطريقة وأمثالها برروا ما زعموه من ألوهيتهم "وكان عليه السلام – كما يقول – مبتدأ وجود العالم عقلاً ونفساً"[٢٠٨]، فنور محمد أو روحه هي الفيض الأول ومنه كان صدور العالم بما فيه أيضاً من عقول وأنفس، واعلم أن "بدء الخلق الهباء، وأول موجود فيه الحقيقة المحمدية الرحمانية، ولا أين يحصرها لعدم التحيز"[٢٠٩]، "ثم خلق الله الملائكة والمولدات-. ولكن "العالم حتى ذلك الحين كمرآة غير مجلوة "حسب الجيلي"-. ثم شاء الحق تعالى بأن يرى عينه في كون جامع يحصر الأمر كله-. فخلق آدم"[٢١٠] أو النوع الإنساني لأن ابن عربي يميز بين آدم من حيث هو إنسان حقيقي أو نوع، وبين آدم من حيث هو أبو البشر حتى أن آدم الحقيقي عنده هو النفس

---

[٢٠٧] - ص١١٣ ج١ بـ٥ نفسه
[٢٠٨] - ص١٠٨ – ١٠٩ ج١ بـ٥ نفسه
[٢٠٩] - ص١١٨ ج١ بـ٦ نفسه
[٢١٠] - ص٩٧ الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي

الكلية عند أفلوطين والهباء هو الهيولا عند أرسطو وسوف يتضح هذا أكثر عند حديثنا عن نظرية الصدور عند ابن عربي.

الإنسان برأي ابن عربي يمثل العالم الصغير والعالم يمثل الإنسان الكبير، ولما كان الوجود هو كلماته تعالى التي لا تنفذ كان الإنسان ممثلاً إلى الألوهية في جمعيتها كما تتجلى في الاسم "الله"، ولما كان العالم مرآة غير مجلوة أو جسماً بلا روح كان الإنسان الكامل روح العالم تماماً كوجود الروح في الإنسان التي بها قيامه "فالإنسان روح العالم والعالم جسد فبالمجموع يكون العالم كله هو الإنسان الكبير والإنسان فيه وإذا نظرت في العالم وحده دون الإنسان وجدته كالجسد المسوى بغير روح، وكمال العالم بالإنسان مثل كمال الجسد بالروح"[٢١١] ولا قيام للعالم دونه لأنه لا قيام لجسد دون روح.

الحقيقة المحمدية أو الإنسان الكامل هو الأول بالفيض ولذلك كان على صورته تعالى، ولما كان العالم من فيض الحقيقة المحمدية أو خلقها كان على صورة الإنسان، فإن الله خلق آدم على صورته، والعالم مخلوق بالإنسان على صورته"[٢١٢]. فمحمد بشر لا كالبشر إنه الخالق، فهو القديم الأزلي بروحه، الحادث بجسده كالآخرين فقد "اصطفى الله واحداً من خلقه هو منهم وليس منهم هو المهيمن على جميع الخلائق – بشراً أو

[٢١١] - ص٦٧ ج٢ بـ٧٣ الفتوحات المكية
[٢١٢] - ص١٠٧ ج٣ بـ٣٢٩ نفسه

ملائكة – جعله الله عُمداً أقام عليه قبة الوجود"[213]، "فلا يزال العالم محفوظاً ما دام فيه هذا الإنسان الكامل"[214]، فهو روح العالم ونفسه الناطقة "وقبل ظهور نشأته ﷺ كان العالم في حال التسوية والتعديل كالجنين في بطن أمه- فليس العالم إنساناً كبيراً إلا بوجود الإنسان الكامل الذي هو نفسه الناطقة، فهو – أي العالم – باق ببقاء الله وما عدا الإنسان الكامل فهو باق بإبقاء الله"[215] على الكامل.

ولكي يكون للأولياء أو الأقطاب الكمل هذا الدور في حفظ الوجود قال ابن عربي: "فلا يخلو العالم أبداً من ممثل لهذه الروح"[216] أو الحقيقة المحمدية، "فلا يزال العالم محفوظاً ما دام فيه هذا الإنسان الكامل"[217]، فالولي الصوفي أو "الإنسان الكامل عمد السماء الذي يمسك الله بوجوده السماء أن تقع على الأرض، فإذا زال الإنسان الكامل وانتقل إلى البرزخ هوت السماء وهو قوله تعالى: وانشقت السماء فهي يومئذ واهية. أي ساقطة إلى الأرض. والسماء جسم شفاف صلب"[218].

فالسماء إذن وفق علومه اللدنية جسم شفاف صلب، ولكنه لم يقل بأنها زرقاء اللون بذاتها، والقمر برأيه جسم أثيري شفاف، وتلك هي ثقافة

---

[213] - ص٢٠١ ج١ التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق
[214] - ص٥٠ ج١ فصوص الحكم
[215] - ص١٨٣ ج٣ بـ٣٤٦ الفتوحات المكية
[216] - ص١٦١ فلسفة التأويل
[217] - ص٥٠ ج١ فصوص الحكم
[218] - ص٤١٨ – ٤١٩ ج٣ بـ٣٧١ الفتوحات المكية

العصر ولا ضير، ولكنها ليست من علوم الله قطعاً، وليت شعري فها هو الرجل يقول: "فنحن ما نعتمد في كل ما نذكره إلا على ما يلقي الله عندنا من ذلك لا على ما تحتمله الألفاظ من الوجوه"[٢١٩]، بل ويقول: "فما من اسم من الأسماء الحسنى وكل أسماء الله حسنى إلا وللعبد الكامل أن يدعى بها"[٢٢٠] لأنه على الصورة ومن أسمائه العليم الخبير، وهل من كامل بعد خاتم الأولياء بعد كبيرهم الجهول بالعالم العارف بما ورائه بعد الذي "كان ولياً وآدم بين الماء والطين؟"[٢٢١]

[٢١٩] - ص١٣٦ ج١ بـ١٠ نفسه
[٢٢٠] - ص٤٠٩٠ ج٣ بـ٣٧٠ نفسه
[٢٢١] - ص٦٤ ج١ فصوص الحكم

- الكامل مثل الله:

الإنسان الكامل على صورة الله فهو مثله، ولكن لا أحد مثل الكامل، وفي ذلك يقول ابن عربي: "فالإنسان الكامل مثل "الله" من حيث الصورة الإلهية ضد من حيث أنه لا يصح أن يكون في حال كونه عبداً رباً لمن هو له عبد خلاف من حيث أن الحق سمعه وبصره وقواه"[٢٢٢]. فلا يجوز إذن أن يكون الكامل رباً لله وهو على الفرق أو في مقام العبودية، أما في مقام الحق سمعه وبصره وكل قواه فلا رب ولا مربوب والكل سواء عند الجمع، وقد قال تعالى عن الكامل "ليس كمثله شيء-. والصحيح في هذه الكاف – كما يقول ابن عربي – أنها كاف الصفة-. فنفى سبحانه وتعالى مماثلة الإنسان الكامل أن يماثله شيء من العالم-. فإن قلت فأين المماثلة في الفعل – بين الله والكامل – قلنا بيان هذا من وجهين، الوجه الواحد أن يفعل بآلة ظاهرة فإذا قمت بتوحيده في الأفعال جعلنا آلة له-. فنحن له كالقدوم للنجار. الوجه الآخر: وهو الفعل بالإرادة والقصد-. فإذا كان الإنسان صاحب همة نافذة فإنه يفعل بهمته، كان مثلاً له"[٢٢٣]. فالكامل مثل الله في أفعاله فإذا كان الله فاعلاً باستخدام جوارح البشر كالآلات بتوحيد لا فاعل إلا الله كذلك الكامل يفعل بآلة، وإن كان الله فاعلاً بالأمر فكذلك الكامل يفعل بهمته الآمرة، فإذا أراد إحداث شيء توجه إليه بهمته، ولا بد

---

[٢٢٢] - ص٢٧٠ ج٣ بـ٣٥٩ الفتوحات المكية
[٢٢٣] - ص٣١٢ ج٣ بـ٣٦٣ نفسه

عندها أن يكون كما شاء، أما أن يكون هنالك من أحد مثل الكامل فهذا لا وجود له لأن الله عنى الكامل بقوله "ليس كمثله شيء" فالكاف كاف الصفة والمعنى عندها كما يقول: "ليس مثل مثله شيء"[٢٢٤]، وبهذه الآية كما يقول أيضاً "أثبت سبحانه وتعالى المثلية له بالإنسان"[٢٢٥] الكامل، وهذا لا يعني أنه الله وإنما هو مثله فقط وكلاهما يتسميان بالأسماء الحسنى كلها بلا فرق!

الإنسان الكامل برزخ أو حد فاصل واصل بين الله والعالم أو الخالق والمخلوق، فله وجهان، وجه إلى الألوهية ووجه إلى العالم وبذلك كملت صورته "فجمع بين صورة الحق وصورة العالم، فكان برزخاً بين الحق والعالم، مرآة منصوبة يرى الحق صورته في مرآة الإنسان ويرى الخلق أيضاً صورته فيه"[٢٢٦]. فلا هو إله ولا هو كالبشر فهو مخلوق وسط بين الله والإنسان، ولولاه لما كان للبشر معرفة بالله ولا كان لله فعل في العالم "فلو نظر سبحانه إلى العالم ببصره لاحترق العالم بسبحات وجهه، فنظر الحق إلى العالم ببصر الكامل المخلوق على الصورة، فالكامل هو عين الحجاب الذي بين العالم وبين السبحات المحرقة"[٢٢٧]. أي: إنه الترس الذي

---

[٢٢٤] - ص١٣٥ ج٤ بـ٤٩٩ نفسه
[٢٢٥] - ص٦٠٣ ج٢ بـ٢٧٨ نفسه
[٢٢٦] - ص٣٩٨ ج٣ بـ٣٦٩ نفسه
[٢٢٧] - ص٣٥٤ ج٢ بـ١٧٨ نفسه

يحمي الخلق من الإحراق الإلهي والوسيلة التي بها معرفة الله تعالى، فمنته بذلك قد غمرت الطرفين!

ـ الرسل والأولياء نواب الكامل الأول:

الحقيقة المحمدية أو روح محمد ﷺ هو "الممد لكل إنسان كامل منعوت بناموس إلهي أو حكمي "وضعي"، وأول ما ظهر من ذلك في آدم حيث جعله الله خليفة عن محمد ﷺ فأمدَّه بالأسماء كلها من مقام جوامع الكلم التي لمحمد ﷺـ. ثم توالت الخلائف في الأرض إلى أن وصل زمان وجود صورة جسمه "في مكة" لإظهار حكم منزلته باجتماع نشأتيه، فلما برز كان كالشمس اندرج في نوره كل نور"[٢٢٨]. فمحمد مصدر كل معارف الكمل سواء كانوا أنبياء أو مشرعين وضعيين، "فهو واضع الشرائع ورافعها – أو معطيها – روحاً ونفساً وعقلاً"[٢٢٩]، "فكل شرع ظهر وكل علم إنما هو ميراث محمدي في كل زمان ورسول ونبي من آدم إلى يوم القيامة"[٢٣٠]. وآدم أول الخلفاء وما بعده خلفاء له، وبوجود محمد في العالم يكون اجتماع نشأتيه الروحية والمادية أو اللاهوت والناسوت.

فآدم هو الخليفة الأول "وما بعده من أمثاله خلفاء له، فالأول وحده هو خليفة الحق وما ظهر عنه من أمثاله في عالم الأجسام فهم خلفاء هذا الخليفة وبدل منه في كل أمر يصح أن يكون له"[٢٣١]، فقبل محمد البشري أو "في زمان الرسل يكون الكامل رسولاً وفي زمان انقطاع الرسالة – أي

---

[٢٢٨] - ص١٤٢ ج٣ بـ٣٣٧ الفتوحات المكية

[٢٢٩] - ص٣٣١ ج٤ بـ٥٥٩ نفسه

[٢٣٠] - ص٤٥٧ ج٣ بـ٣٧٣ نفسه

[٢٣١] - ص٢٨٠ ج٣ بـ٣٦٠ نفسه

بعد موته ﷺ – يكون الكامل وارثاً-. فالأمر ينزل من الله على الدوام لا ينقطع، فلا يقبله إلا الرسل خاصة على الكمال فإذا فقدوا حينئذ وُجد ذلك الاستعداد في غير الرسل فقبلوا ذلك التنزل الإلهي في قلوبهم فسموا ورثة لم ينطلق عليهم اسم رسل مع كونهم يخبرون عن الله بالتنزل الإلهي"[٢٣٢]. فقبل موته ﷺ يطلق على الكمل رسل، وبعد موته يطلق عليهم الورثة، فليس من خلاف إلا في الاسم لأن التنزلات الإلهية حسب رأيه هي نفسها على الرسل وأولياء التصوف لم تنقطع.

فقد "جعل "ﷺ" له نواباً حين تأخرت نشأة جسده، فأول نائب كان له وخليفته آدم عليه السلام-. وعيَّن في كل زمان خلفاء إلى أن وصل زمان نشأة الجسم الطاهر محمد ﷺ فظهر مثل الشمس-. فهو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم فإنه قال: أوتيت جوامع الكلم، وقال-. فعلمت علم الأولين والآخرين-. وكل منفصل عن شيء فقد كان عامراً لما عنه انفصل"[٢٣٣]، "فأعطي علم ما لا يتناهى-. وهي صفة إلهية لم تكن لغيره-. ولما علم بجوامع الكلم أعطي الإعجاز بالقرآن الذي هو كلمة الله، وهو المترجم به عن الله، فوقع الإعجاز في الترجمة التي هي له"[٢٣٤]. فمحمد بزعمه إلهي بعلمه ومعارفه والإعجاز القرآني للترجمة

---

[٢٣٢] - ص٢٧٠ ج٣ بـ٣٥٩ نفسه

[٢٣٣] - ص١٣٧ ج١ بـ١٠ نفسه

[٢٣٤] - ص١٤٣ ج٣ بـ٣٣٧ نفسه

للألفاظ التي عبر بها محمد ﷺ عن الفهم أو المعنى لا لكلام الله وقد تكلمنا عن هذه المسألة بما فيه الكفاية في كتابنا "القرآن في الفكر الصوفي".

لقد أرسل محمد ﷺ للبشر كافة، "فمن زمان آدم عليه السلام إلى زمان بعث محمد ﷺ إلى يوم القيامة. كان الإمداد يأتي إليهم – أي للأنبياء والرسل والأولياء – من تلك الروح الطاهرة أو الحقيقة المحمدية بما يظهرون به من الشرائع والعلوم في زمان وجودهم رسلاً ومشرعين. لكن لما لم يتقدم في عالم الحس وجود عينه ﷺ أولاً نُسب كل شرع إلى من بُعث به وهو في الحقيقة شرع محمد ﷺ"[٢٣٥]. وبما أنه صلى الله عليه وسلم أصل ومصدر كل الشرائع والعقائد بكل أنواعها فكل العقائد والشرائع مقبولة عند الله وهي على الصواب "فالكامل له الظهور في كل صورة"[٢٣٦] من صور الاعتقاد لا فرق في ذلك بين المجوس والهندوس والإسلام!

نواب الحقيقة المحمدية متساوون معها فلهم ما لها وكل متصل بشيء كان عامراً بما اتصل به، فالأقطاب كثر "وأما القطب الواحد فهو روح محمد ﷺ وهو الممد لجميع الأنبياء والرسل سلام الله عليهم أجمعين، والأقطاب – هو ممدهم – من حين النشئ الإنساني إلى يوم القيامة. ولهذا الروح المحمدي مظاهر في العالم أكمل مظهره في قطب الزمان وفي

[٢٣٥] - ص١٣٦ ج١ بـ١٠ نفسه
[٢٣٦] - ص٢٦٤ ج٤ بـ٥٥٨ حضرة الطيب. نفسه

الأفراد وفي ختم الولاية المحمدية وختم الولاية العامة الذي هو عيسى عليه السلام"[٢٣٧].

ابن عربي خاتم الولاية المحمدية، إنه أحد مظاهر أو تجليات الحقيقة المحمدية، وبه يُعرف الله على العيان لأنه مثل الله وعلى صورته، وما عرف الله أحداً كمعرفته به ولذلك كله وجبت له الطاعة في العمل والاعتقاد، "واعلم – كما يقول – أن الله تعالى لما أراد أن يعرف فلا بد أن ينصب دليلاً على معرفته ولا بد أن يكون الدليل مساوياً له تعالى في العلم به- فخلق الإنسان الكامل على صورته ونصبه دليلاً على نفسه لمن أراد أن يعرفه بطريق المشاهدة لا بطريق الفكر"[٢٣٨]. فالكامل إذن ومن حيث هو مثل الله، يكون من رآه كمن رأى الله جهرة كشفاً عياناً دون حجاب، ولا هو عندها بالمحتاج إلى الأقيسة الظنية أو الفكرية لمعرفته، والحقيقة كما يقول: "فما عرف الحق – أو الله – إلا الإنسان الكامل- الذي هو نائب الحق، فقد علم من استنابه واستخلفه فإنه بصورته ظهر وأمرنا بالطاعة لأولي الأمر- فلو لم ينصب سبحانه وتعالى الإنسان الكامل لتتحقق المعرفة بالله- لظهر بنفسه وذاته إلى خلقه حتى يعرفه على المشاهدة والكشف"[٢٣٩].

---

[٢٣٧] - ص١٥١ ج١ بـ١٤ نفسه
[٢٣٨] - ص٢٨١ ج٣ بـ٣٦٠ نفسه
[٢٣٩] - ص٢٨٣ نفسه

فمحمد ﷺ وفق عقيدة الصوفية في الحقيقة المحمدية قديم أزلي له كل الصفات التي لله، فهو على صورته ومثله، إنه مصدر الكون وخالقه وهو الرزاق العليم، وهو المصدر لكل المعارف والعقائد التي عند البشر مهما كان اختلافها وتباينها، وعندها لا معنى إن أردت الفصل بين ما لأفلوطين وما لمحمد ﷺ لأن أفلوطين هو الآخر واحداً من تجليات أو مظاهر الحقيقة المحمدية، وبذلك حقَّ للصوفي المساواة بين محمد ﷺ والعقل الأول الذي للغنوص.

أما الفقيه الحراني فيقول عن الاعتقاد بالحقيقة المحمدية: إن "هذا كفر بالاتفاق"[٢٤٠]، فمحمد ﷺ بشر لا غيره ولا فرق إلا الوحي ولا وحي منه "قل إنما أنا بشر **مثلكم** يوحى إليَّ"[٢٤١]، وسبحانه وتعالى "هو الذي أرسل في الأميين رسولاً **منهم**"[٢٤٢]، حتى أن كفار العرب قد تعجبوا، "بل عجبوا أن جاءهم منذر **منهم** فقال الكافرين هذا شيء عجيب"[٢٤٣]، فكل من أنكر بشريته ﷺ المساوية لغيره، أو كل من جعله لا كالبشر فقد أخطأ كما لا وحي ولا معرفة منه ﷺ بعد موته وقبل حياته: "إنك ميت وإنهم ميتون. ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون"[٢٤٤]، وقد أخبرنا الله أيضاً

---

[٢٤٠] - ص٧٧ تاريخ التصوف الإسلامي
[٢٤١] - الكهف ١١١
[٢٤٢] - الجمعة ٢
[٢٤٣] - ق ٢
[٢٤٤] - الزمر ٣٠ – ٣١

أن محمداً ﷺ قد عجز عن الكثير من الأمور: "وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلا، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تُنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا **بشراً** رسولا"[٢٤٥].

ولو كان محمداً ﷺ بالأصل ذا جانب إلهي كما زعم أهل التصوف لما كان أيسر عليه من الإتيان بهذه الأمور التي لا تعد شيئاً أمام ما نسبوه إلى أوليائهم، وها هو ابن عربي يعارض صراحة ما يقوله القرآن ليقول عن محمد ﷺ:

"إذا رام أمــــراً لا يكــــون خلافـــه وليس لذاك الأمر في الكون صارف"[٢٤٦]

"والواقع – في نهاية المطاف – أنه لا إسناد لهذه النظرية – الحقيقة المحمدية – من شرع وعقل، فالشرع يحكم أن محمداً مخلوق اصطفاه الله لتبليغ رسالته والعقل لا يوجب أن يكون تسلسل الموجودات على هذا النظام الذي يقضي بأن الحقيقة المحمدية قد صدرت عن الذات الأحدية وأن تلك الحقيقة هي الواسطة بين الله وبين جميع ما ظهر من صنوف

---

[٢٤٥] - الإسراء ٩١ – ٩٢

[٢٤٦] - ص١٤٣ ج١ بـ١٢ الفتوحات المكية

الموجودات"[٢٤٧]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله.

[٢٤٧] - ص٢٠٥ ج١ التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق

ـ الحقيقة المحمدية ونظرية الصدور أو الخلق عند ابن عربي:

لقد قال الأنبياء ومذ وجدوا على الأرض بقدرة الله الخالقة للوجود من العدم، وبهذا الاعتقاد كان كف العقل عما لا طائل منه وتوفير جهوده لما هو أنفع لصاحبه، أما المنكرون بالمقابل وبعد إنكارهم للخلق من العدم لاقترانه بالمرجح الزمني واستحالة الوجود عن اللاوجود بزعمهم، فقد أبوا إلا الانطلاق بعقولهم لتفسير ما سموه صدور الوجود أو الكون عن الله تعالى قياساً عما يصدر عن الإنسان عند الاستمناء والعطاس والتنفيس والولد، وأصبح على عاتق مصطلحات "الصدور" و"الفيض" و"يعقل" و"التجلي" و"النكاح" وإلى ما هنالك تجاوز معنى العدم لصالح الوجود المتصل الذي له ضم الله والمادة في وجود واحد، وأصبح الإشكال لديهم محصوراً لا في النقص المرافق للعدم وإنما في كيفية صدور الكثير عن الواحد حتى وقعوا مع جهدهم العظيم فيما هو أدهى وأمرْ، فالفارابي مثلاً جعل من مصطلح "يعقل" الغامض بفعله كل الغموض علة في هذا الصدور، فمن كون الواحد يعقل ذاته كان صدور العقل الأول، ومن كون العقل الأول يعقل ذاته ويعقل ما قبله أو الواحد، كان صدور الثاني، ومن كون الثاني يعقل ذاته ويعقل ما قبله كان عنه صدور الثالث وهكذا انتهاء إلى العقل الفعال أو العاشر عقل فلك القمر المسؤول عن عالم الكون والفساد.

أما ابن عربي فقد اتخذ "التجلي" للتعبير عن صدور الوجود كما اتخذ النكاح عوضاً عن "يعقل" وامتاز التجلي لديه بالفعالية المستمرة للواحد وهو ما سماه بالخلق الجديد اعتماداً على تفسيره للآية "بل هم في لبس من خلق جديد" بعد أن عزلت نظرية الفيض التي يمثلها أفلوطين أو الفارابي "الواحد" عن هذه الفاعلية المستمرة التي أصبحت للعقول.

لقد استخدم ابن عربي مصطلح "الوسائط" في تفسيره للصدور، فهنالك برأيه "الذات الإلهية" المنزهة الغير مدركة تمثل المركز الباطن للوجود، وهذه الذات ذات اتصال بمراتب الوجود كلها من خلال الوسائط، ومجموعات الوسائط برأيه ثلاثة وهي كما يلي:

المجموعة الأولى من الوسائط وتتألف مما يلي:

الخيال المطلق أو حضرة الخيال: وتضم هذه المجموعة "الألوهة" و"الحقيقة الكلية" و"العماء" أو الأعيان الثابتة، و"الحقيقة المحمدية" أو العقل الأول، وهذه المصطلحات كتنويه هي نفسها عند الفلاسفة على التوالي: "العلة الفاعلة"، "العلة الهيولانية" أو العماء، "العلة الصورية"، "العلة الغائية". ومن أجل أن يخدع قراءه ويجرهم نحو عظمته التي تخيلها غيَّر أسماءها فقط.

١ ـ الألوهة أو الله: الألوهة هي مجموع الأسماء الإلهية والاسم الجامع الله يدل عليها وهي: العلة الفاعلة، إنها التجلي الأقدس إنها

الحضرة الجبروتية وهي وسيط بين الذات الإلهية والعالم نظراً لأنها ذات جانبين جانب إلى الذات من حيث اسم الله وهو جانب الوحدة وجانب إلى العالم من حيث باقي الأسماء وهو جانب الكثرة، فالألوهة بذلك برزخ بين الذات والعالم لا لتفصل وإنما لتجمع بينهما، وبذلك تكون ثنائية الذات والعالم التي ميزت وحدة الوجود عند ابن عربي عمن سواه من أصحاب الوحدة المطلقة والألوهة من حيث اسم الله أو من حيث جانب الذات قديمة، ومن حيث ظهورها أو من حيث باقي الأسماء وتعلقها بإيجاد أعيان الممكنات محدثة والعالم بذلك محدث من حيث ظهوره المادي المحسوس وقديم من حيث بطونه في العلم الإلهي، وعلى هذا الأساس يمكن وصفه بالمعدوم من انعدام الوجود الحسي، وبالقديم من حيث الوجود العلمي، وما إيجاد العالم من حالته العلمية إلى حالته العينية إلا بتجلي الذات عبر مراتب حضرة الخيال التي معناها في نهاية المطاف التخيل الخلاق للذات الإلهية.

وهذه الفكرة، أقصد: الخلق الإلهي عن طريق التخيل قد أخذها ابن عربي عن قياس مع الولي أو الساحر الذي له تجسيد خياله أمام النظر بواسطة الهمة على حد تعبيره، وكما للولي هذه الهمة الخالقة لا بد بالقياس من وجود هذه الهمة الخالقة عند الله، ولكن مع فارق بسيط بين حفظ ما يخلقه الله وحفظ ما يخلقه الولي وهو أن الأول دائم أما الثاني فزائل بحكم

ما يعتري الولي الخالق من غفلة أو موت"[٢٤٨]، وهذا هو نفسه من جهة أخرى الفرق بين الولي الزاعم للألوهية التي هي من حقه وبين الله"[٢٤٩].

ـ الأسماء الإلهية أو جسد الله:

الإنسان الواحد يتألف من روح لا مُدرك وجسد مادي كثير الأعضاء ذات الأسماء المتعددة، أي هو الواحد الكثير، وبالقياس أصبح الله عند ابن عربي بمثابة الروح والعالم الكثير بظاهراته بمثابة جسده، وبتوحيد لا موجود إلا الله أصبح الله هو الواحد الكثير، وكل ما له اسم في الوجود فهو اسم لجزء من أجزاء الله الكثيرة! وكما ينسب فعل اليد إلى صاحبها وهي جزء منه كذلك تنسب أفعال أجزائه تعالى إليه وهو ما يعنيه توحيد لا فاعل إلا الله، وقد رأينا مما سبق أن "الألوهة" عند ابن عربي ذات جانبين، جانب إلى الذات ويمثله اسم "الله" المساوي للروح بالنسبة للإنسان، وجانب إلى العالم ويمثله باقي الأسماء الإلهية المساوية لأعضاء الجسد الإنساني وبذلك تكون الأشياء ليست إلا أسماؤه وأنه كما يقول: "ما ثم مسمى وجودي إلا الله، فهو المسمى بكل اسم والموصوف بكل صفة والمنعوت بكل نعت. فالكل أسماء الله، أسماء أفعاله أو صفاته، أو ذاته فما في الوجود إلا الله"[٢٥٠]، "فكما أنه ليس في الوجود إلا الله كذلك ما ثم

---

[٢٤٨] ـ ص٨٨ ــ ٨٩ ج١ فصوص الحكم

[٢٤٩] ـ ص٨٩ نفسه

[٢٥٠] ـ ص٥٤ ج٢ بـ٧٣ الفتوحات المكية

قائل ولا سامع إلا الله"[251]، "فالكل أسماؤه تعالى- وأن أسماء الكون أسماؤه"[252]، "فالكل أسماء إلهية"[253] على الإطلاق "فليست الأسماء إلا عين المسمى"[254]. ولا مسمى إلا الله "فالعالم الذي هو جماع الموجودات كلها هو عين الأسماء التي سمى الله بها نفسه"[255] و"كل موجود من الموجودات هو كلمة من كلمات الله"[256]، وكلمات الله وأسماؤه لا نهاية لها بعدد أو حد، ولهذا استشهد ابن عربي بالاسم الأعظم وبقوله ﷺ في دعائه: "كل اسم علمته أحداً من عبادك" وقوله: "يعلمني بمحامد لا أعلمها الآن" وعندما أراد إحصاء الأسماء الإلهية في القرآن ووجدها ٨٣ اسماً قال: "وما قدرنا على تعيينها من وجه صحيح، فالآيات الواردة فيها كلها مضطربة لا يصح منها شيء، وكل اسم إلهي يحصل لنا من طريق الكشف- فلا نورده في كتاب"[257]، "وعلى الحقيقة فما في الوجود إلا أسماؤه"[258] التي لا نهاية لها.

فالأحاديث النبوية إذن والآيات القرآنية التي حددت عدد الأسماء الإلهية غير صحيحة وكلها مضطربة، ومعرفة الأسماء الحسنى على

---

[251] - ص٣٦٧ ج٢ بـ١٨٢ نفسه
[252] - ص٣٥٠ ج٢ بـ١٧٨ نفسه
[253] - ص١٣ ج٤ بـ٤٠٩ نفسه
[254] - ص٢٣١ ج٤ بـ٥٥٨ نفسه. حضرة الإذلال
[255] - ص٨٥ ج٢ فصوص الحكم
[256] - ص٤ نفسه
[257] - ص٣٠٢ ج٢ بـ١٧٧ الفتوحات المكية
[258] - ص٣٠٣ ج٢ بـ١٧٧ نفسه

أنها صفات لله أو لذاته تعالى خطأ ما بعده خطأ لأن الله كما يقول قد "خاطب هذا الرسول "يقصد محمد ﷺ" على حسب استعداده" "كما له سبحانه أن يصف نفسه بما شاء على قدر عقل القابل – أو استعداده – وإن كان – أي الله – على خلاف ذلك"[٢٥٩]. فالله برأيه يصف نفسه بغير ما هو عليه حقيقة ملاءمة لعقل رسوله واستعداده فما قال به الرسول والقرآن من أسماء صفاتية إذن لا يجب أخذه على محمل الحقيقة والجد الموضوعي، وما هو مثلاً ممن لم يلد ولم يولد، وما الأسماء الحسنى إلا "أسماء لا نعوت"[٢٦٠]. أي: وجودية أو لمسميات ذات وجود، فالأشياء أسماء إلهية "حتى القصعة والقصيعة"[٢٦١] من أسمائه تعالى، ولا فرق في هذا بين طاهر ونجس وعظيم وذليل! وكما لكل ما كان عن الإنسان اسم يشير إلى وجوده كذلك أسماء الله تشير إلى أجزائه طالما هو نفسه عين الوجود، ونحن أيضاً من "كلماته التي لا تنفذ. قال تعالى: وكلمته ألقاها إلى مريم "إنها عيسى"-. وتلك الحقيقة سارية في الحيوان"[٢٦٢] حتى الخنزير من كلماته التي تجسدت في الوجود أو من أسمائه تعالى، واعلم أيضاً أيها الإنسان "أنك من جملة أسمائه بل من أكملها اسماً-. والشيخ أبا أحمد بن سيدبون بمرسيه سأله إنسان عن اسم الله الأعظم، فرماه بحصاة يشير إليه

---

[٢٥٩] - ص٣٠٦ ج٢ بـ١٧٧ نفسه
[٢٦٠] - ص١٤٩ ج٣ بـ٣٣٨ نفسه
[٢٦١] - ص٣٥٥ ج٢ بـ١٧٨ نفسه
[٢٦٢] - ص٣٣١ ج٢ بـ١٧٨ نفسه

أنك الاسم الأعظم. وهكذا في جميع الأكوان؟ قلنا نعم"[٢٦٣]، "والأنصار كلمات الله"[٢٦٤] وكذلك المهاجرين من جملة أسمائه تعالى ولا فرق. أما أن يتسمى سبحانه بالنقص فلا غرابة! وها هو ابن عربي يقول: "فسمى سبحانه نفسه بالأسماء النواقص فقال: هو الذي خلقكم. وقال: الله الذي أنزل من السماء. وليست في القرآن لله تعالى أكثر من الأسماء النواقص- حُبرِّت عليه الأسماء النواقص"[٢٦٥]. فمن النقص أن يسمى بالخالق لأنه لا خلق في وحدة الوجود، ومن النقص أيضاً أن يقال بنزوله تعالى وكيف ذلك إن كان هو الكل بما فيه الفوق والتحت، وهلا علمت أن من أسمائه القاتل وفق القرآن بقوله تعالى: "فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم. فهو القاتل وإن لم يرد هذا الاسم. وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى. فهو الرامي فهو الرامي بالصورة المحمدية وإن لم يرد هذا الاسم"[٢٦٦] من جملة ما ورد من أسمائه تعالى في المأثور النبوي، ومن أسمائه حسب ابن عربي "الذلة والافتقار- إن الأسماء أسماؤه وأنه لا بد من إطلاقها علينا فأطلقناها ضرورة لا اعتقاداً"[٢٦٧] أو وقاية لله عن الناقص والمذموم من باب الأدب، والحقيقة أنه لا حدَّ لأسمائه تعالى ولا فرق في ذلك بين طاهر ونجس بين محمود ومذموم بما أن الكون كله كجسد له سبحانه، فالرامي

---

[٢٦٣] - ص٦٦٥ ج٢ بـ٤٩٣ نفسه
[٢٦٤] - ص١٩٧ ج٣ بـ٣٤٨ نفسه
[٢٦٥] - ص٦٤٤ ج٢ بـ٢٨٨ نفسه
[٢٦٦] - ص١٤٢ ج٤ بـ٥٠٤ نفسه
[٢٦٧] - ص٢٢٨ ج٣ بـ٣٥ نفسه

من أسمائه ومن أسمائه القاتل "وهي عند العامة – أو العوام – أسماء نقص وعندنا أسماء كمال فإنه ما ثم مسمى بالأصالة إلا الله"[٢٦٨] وهو المشهود بكل عين.

الأسماء ومن جملتها الأسماء الحسنى بالمعنى الإسلامي ليست برأي ابن عربي صفات ونعوت وإنما هي أسماء لكائنات ذات روح وجسد، فللأسماء الإلهية – كما يقول – جانبان: جانب الأصل والحقيقة أو الروح، وجانب الظل والصورة، فأرواح الأسماء هي جانبها الإلهي، وصورها هي جانبها الإنساني"[٢٦٩] أو المادي، "فالاسم الباري "مثلاً" هو الممد للمصورين حسن الصورة"[٢٧٠]، والاسم البصير "والاسم الباري يمدان أهل الفصاحة والعبارات ولهما إعجاز القرآن وحسن نظم الكلام الرائق"[٢٧١].

ولما كانت الأسماء الإلهية أرواحاً لكائنات أو كائنات مؤلفة من جسد وروح كالإنسان نرى ابن عربي يقول بإمكانية استخدامها وتسخيرها تسخير السحرة للجن، حتى أن من جملة علومه التي زعمها "علم إخراج المغيبات بالأسماء الإلهية"[٢٧٢]، بل وله أيضاً مقام يسميه مقام حيازة

[٢٦٨] - ص١٤٧ ج٣ بـ٣٣٨ نفسه
[٢٦٩] - ص١٩٢ فلسفة التأويل
[٢٧٠] - ص٤٢٤ ج٢ بـ١٩٨ الفتوحات المكية
[٢٧١] - ص٤٢٥ ج٢ بـ١٩٨ نفسه
[٢٧٢] - ص٥٧٨ ج٢ بـ١٧١ نفسه

العساكر "فإذا تحققوا ذلك "أي أولياء التصوف" حازوا عساكر الحق التي هي أسمائه سبحانه، إذ أسمائه تعالى عساكره وهي التي يسلطها على من يشاء ويرحم بها من يشاء"[٢٧٣]، ومن تصرف في أسمائه تعالى كان من أوليائه فالأسماء بحكم العبيد"[٢٧٤] للولي يسخرها فيما يشاء!

٢ ـ الحقيقة الكلية:

الحقيقة الكلية أو حقيقة الحقائق أو الهيولى أو المادة الأولى أو جنس الأجناس، تمثل أحد تجليات الذات على حضرة الخيال، وتمثل حقيقة الحقائق بالنسبة للألوهة الجانب الباطن كما تمثل الألوهة الجانب الظاهر لحقيقة الحقائق، فحقيقة الحقائق بذلك وسيط بين الله والعالم من جهة وبين الله والإنسان من جهة أخرى، ولما كانت حقيقة الحقائق هي مجموع الحقائق التي يتكون منها العلم الإلهي أو محتوى العلم القديم، كانت شيئيتها ذات وجود ذهني معقول لا عياني محسوس، وهي بالتشبيه كالمعلومات الموجودة في ذهن الإنسان.

٣ ـ العماء:

العماء أو الأعيان الثابتة أو التجلي المقدس للذات الإلهية، هو نفسه العلة الصورية عند الفلاسفة، وهو موجود ناتج عن "النَفَسْ" الإلهي

---

[٢٧٣] - ص٤٢ ج٢ بـ٧٣ نفسه
[٢٧٤] - ص٣٦٨ ج٤ بـ٥٥٩ نفسه

للتنفيس عن كربة الوحدة المطلقة، أو شوقاً للظهور أو طلباً للمربوب، فالعماء من نواتج التنفيس أو النَفَس وهو أصل كل الصور، فمن حيث أن الاسم الإلهي "الرب" الذي يتطلب المربوب أو الوجود الفعلي كانت الكربة التي سببت النفسْ أو التنفيس، تماماً كالكربة التي تصيب معدة الإنسان حتى تضطره للتنفيس!

والأعيان هذه تمر في تطورها بمرحلتين: المرحلة الأولى هي مرحلة انتقالها من عدمها الأزلي إلى وجودها الشيئي كأعيان ثابتة ذات وجود معقول في حيز معقول، والمرحلة الثانية هي انتقالها من حالة الثبوت إلى حالة الوجود الحسي، **ومن هذه الأعيان أيضاً ظهرت الملائكة المهيمة أو الملائكة الكروبيون الذين منهم القلم أو العقل الأول أو الحقيقة المحمدية** أو آدم أو الإنسان الكامل وتلك هي المرتبة الرابعة لحضرة الخيال المطلق.

٤ ـ الحقيقة المحمدية:

الحقيقة المحمدية آخر مراتب الخيال المطلق وأول مراتب المجموعة الثانية، أو قل **هي مصدر عقول أو أرواح عالم الأمر وهي حقيقة روحية لا مادية سارية في الكون بأسره كما هي سارية في الأنبياء والرسل** حتى تجسدت في شخصية محمد العنصرية التاريخية، **وآدم العنصري يمثل أول تجلياتها المادية وهي القلم الأعلى والعقل الأول**

الذي تفرعت عنه العقول الجزئية الكوكبية والبشرية، وهي روح الإنسان الكامل الذي لا يخلو الزمان منه لحفظ الوجود والنظام في الكون طالما الولاية مستمرة بلا انقطاع. **والحقيقة المحمدية مثلها مثل "الألوهة"** وحقيقة الحقائق والهباء تمثل وسيطاً روحياً بين الله والعالم من جهة وبين الله والإنسان من جهة أخرى. فالإنسان بذلك ذو نسبتين: نسبة يدخل بها إلى الحضرة الإلهية وأخرى يدخل بها إلى الحضرة الكيانية فيقال فيه عبد من حيث أنه مكلف، ويقال فيه رب من حيث أنه خليفة وصورة وتقويم، ومن كان رباً فلا تكليف عليه وبهذا يتميز الإنسان الكامل عن الإنسان الحيوان.

ـ المجموعة الثانية من الوسائط:

وتسمى هذه المجموعة بعالم الأمر أو العقول، وتتألف من اللوح المحفوظ أو النفس الكلية، والطبيعة الكلية، والجوهر الهبائي أو الهيولا الكل، والجسم الكل. وتبدأ هذه المجموعة حيث انتهت المجموعة الأولى. **والحقيقة المحمدية أو المبدع الأول الذي هو القلم الأعلى أو العقل الأول أو الروح الكلي أو الإنسان الكامل تعد حلقة الوصل بين المجموعتين فلها جانبان: جانب يتصل بعالم الخيال المطلق وينتمي إليه وجانب آخر ينتمي إلى عالم الأمر ويتصل به عن طريق النكاح أو التجلي،**

والمجموعة الثانية أو عالم الأمر هي الأخرى تتوسط بين عالم الخيال المطلق وبين عالم الخلق والشهادة.

مراتب المجموعة الثانية:

١ – اللوح المحفوظ: **النفس الكلية أو اللوح المحفوظ تمثل أول مراتب تجليات الحقيقة المحمدية** ولها جانبان: جانب يتصل بالحقيقة المحمدية أو العقل الأول ويسمى هذا الجانب "القوة العلمية" وجانب يتصل بما يليها من المعقولات أو الطبيعة ويسمى "القوة العملية" وعن النفس الكلية تفرعت النفوس الجزئية المدبرة للصور والأجسام في العالم الحسي.

٢ – الطبيعة الكلية: **تمثل الطبيعة المرتبة الثانية من مراتب تجلي الحقيقة المحمدية والطبيعة هذه ذات وجود عقلي لا حسي** وتعتبر مصدر كل المولدات الطبيعية في عالم الأجسام، وعلاقة النفس الكلية من حيث تكوين الطبيعة كائنة في تجلي الاسم الإلهي "الباطن".

٣ – الهيولا الكل: الهيولا الكل أو الجوهر الهبائي يعتبر مصدر كل الصور وهو كائن عن تجلي الاسم الإلهي "الآخر".

٤ – الجسم الكل: وهو عن تجلي الاسم الإلهي "الظاهر".

ـ المجموعة الثالثة من الوسائط أو عالم الخلق:

وتتألف المجموعة الثالثة من العرش والكرسي والفلك الأطلس وفلك الكواكب الثابتة.

١ – العرش: هو برزخ ذا جانبين بين عالم الموجودات المعقولة وعالم الموجودات الحسية أو عالم الكواكب وهو على هيئة السرير وله من الأسماء الإلهية الاسم المحيط وهو مستوى الاسم "الرحمن" وهو أصل كل أجسام العالم، ويحيط بكل ما يليه من موجودات، له أربع قوائم وهي صُور ويرمز له بإسرافيل وآدم، والأرواح ويرمز لها بجبريل ومحمد، والأرزاق ويرمز لها بميكائيل وإبراهيم، والوعد والوعيد ورمزه رضوان ومالك.

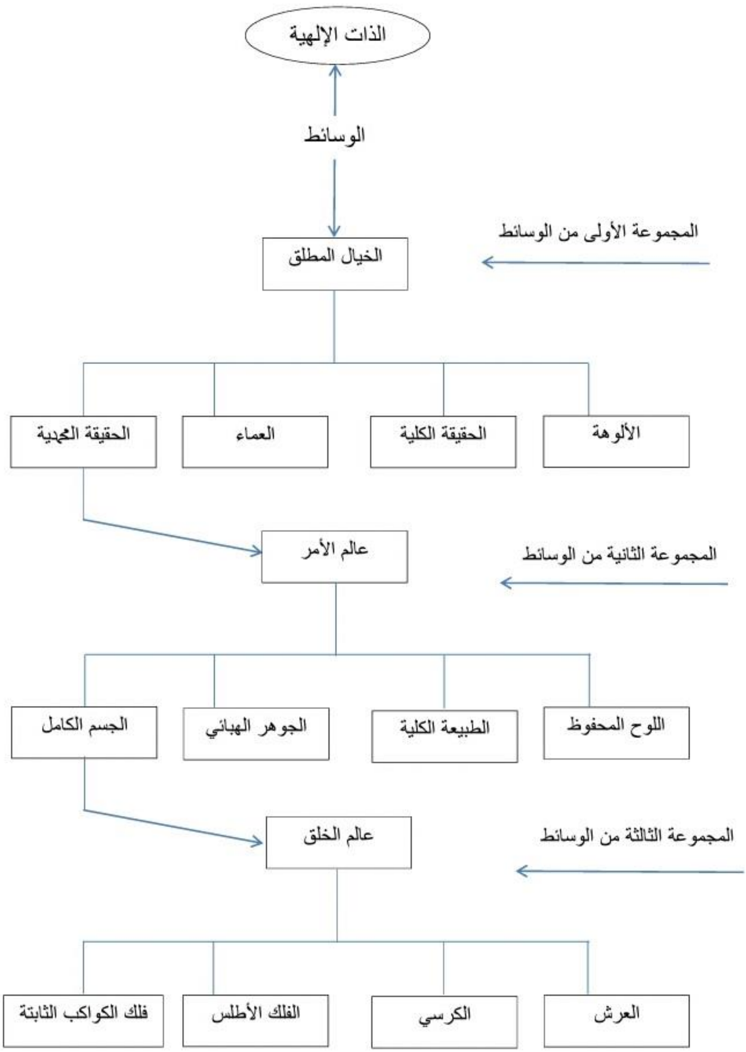
٢ – الكرسي: يمثل على المستوى الوجودي عالم التعدد وإثنيته كائنة من حيث موضع القدمين الإلهيتين. القدمان يمثلان في عالم الألوهة تقابل الأسماء الألوهية مثل الأول والآخر، وفي عالم الخلق يمثلان كل الصفات الإلهية، فبالقدمين أغنى وأفقر وإلى ما هنالك، والكرسي وجد من تجلي الاسم "الشكور".

٣ – الفلك الأطلس أو الأقصى: وفيه تتحول الثنائية التي ظهرت في فلك الكرسي إلى كثرة البروج الاثني عشرة، وفيه تتم التفاعلات كتفاعل الحرارة مع اليبوسة لوجود النار وهكذا، والفلك الأطلس يمثل الأصل

الذي تنتج عنه التكوينات والاستحالات والتغييرات في المنازل الثلاثة الدنيا والآخرة والبرزخ هذا هو جانبه الطبيعي، أما جانبه الروحي فيتمثل في ملائكة الأبراج الذين هم ولاة الكواكب الاثني عشرة وهؤلاء الملائكة يسميهم ابن عربي بالمقسمات.

٤ – فلك الكواكب الثابتة أو المنازل: وجد هذا الفلك من تجلي الاسم الإلهي "المقدر" له جانبان: الجانب المنفعل وهو اتصاله بما فوقه، والجانب الفاعل حيث تأثيره فيمن بعده، وأهل الجنة هم أهل هذا الكوكب، ومكانياً يتضمن الجنة والنار حيث أن سطحه أرض الجنة ومقعره فيما يلي السماء السابعة سقف النار، وفلك المنازل ينقسم إلى ٢٨ منزل من منازل القمر المسكونة بالملائكة الذين أطلق عليهم "التاليات". وهؤلاء الملائكة هم حجاب للملائكة "المقسمات" ومهمتهم نقل الأوامر من المقسمات إلى ملائكة الأفلاك السبعة الذين هم نواب التاليات وهكذا ينتهي الخلق إلى الجنس الإنساني فتكتمل الدائرة وبه تجتمع كل حقائق الوجود.

- ولتوضيح ما سبق نقدم المخطط التالي:



ـ الصدور والتفسير الإحيائي عند ابن عربي:

من المعلوم أن كلام الإنسان عن اللامدرك يستحيل أن يكون محلاً لليقين المنطقي، وقضية الخلق أو الصدور التي تكلم فيها ابن عربي لم تكن على الحقيقة إلا عن تعميم تجربته المدركة في حياته الحسية هذه أو قياساً على هذه التجربة التي لا صدق موضوعي لها إلا في الاقتطاع الذي تنتمي إليه أو الذي نتجت عنه، فبعد أن تسلح الرجل بما يعرف وعما يصدر عن الإنسان انطلق إلى حل مشكلة صدور الكون عن الله عز وجل، وهذا في الواقع من أفدح الأخطاء، ولنضرب لذلك مثلاً من عالم المادة بالمثلث ومجموع زواياه، فالمثلث الأوقليدي الذي مجموع زواياه ١٨٠ درجة لا يصح إلا للسطح المستوي أو للواقع العملي البسيط، أما المثلث الفلكي أو على السطح المحدب فمجموع زواياه أكثر من ١٨٠ درجة، بينما المثلث الجرثومي أو على السطح المقعر فمجموع زواياه أقل من ١٨٠ درجة. وهذا شأن معلوم في العلم الحديث، وبناء عليه فلا وجود بالمطلق لمثلث مجموع زواياه ١٨٠ درجة، وتعميم هندسة إقليدس على كل الكون خطأ لا يؤدي إلى المعرفة بموضوع العلم، وما بالك إن انطلق التعميم إلى ما وراء العالم نحو العالم الإلهي؟ وابن عربي قد أخطأ كثيراً لما جعل الإنسان وما يصدر عنه مقياساً لتفسير صدور الوجود عن الله عز وجل، وقياسا عن الإنسان الواحد الكثير زعم توحيد لا موجود ولا فاعل إلا الله وبالخيال الذي يجسده السحرة أمام النظر وبما يراه

الممرورون والمحمومون من خيالات جعل الخيال وسيلة الخلق أو الصدور عن الله، وبالموجود في ذهن الإنسان من معلومات وعلم كانت له "الحقيقة الكلية".

الأعيان الثابتة أو العماء ليست برأيه إلا الشبيه لما يخرج من الإنسان المكروب عند التنفيس، وبهذا يقول: "كل ما سوى الله ريح"[٢٧٥]، ومن أجل ذلك كما رأينا سابقاً جعل ابن عربي للروائح الكريهة أسراراً لا يعلمها إلا الله عز وجل. فالرحمن في ضيق وكرب بالربوبية التي تطلب المربوب "ولهذا الكرب تنفَّس"[٢٧٦] فكان "العالم الذي تطلبه الربوبية"[٢٧٧]، "فلولا الحرج والضيق ما كان للنفس الرحماني حكم، فإن التنفيس هو إزالة عين الحرج والضيق- فقد كان الرحمن في كرب الشوق إلى الوجود- فنفَّس الرحمن بنَفَسه هذا الحرج"[٢٧٨]، "فالعالم ظهر في نَفَس الرحمن الذي نَفَّس الله به عن الأسماء الإلهية ما تجده من عدم ظهور آثارها"[٢٧٩].

وكما أن الأبخرة والأصوات ترافق ما يخرج من الإنسان حال التنفيس، كذلك هو الحال الإلهي عند الكرب يقول: "فكان عنه – أي

[٢٧٥] - ص٣٧٦ ج٤ بـ٥٥٩ الفتوحات المكية
[٢٧٦] - ص١١٢ ج١ فصوص الحكم
[٢٧٧] - ص١١٩ نفسه
[٢٧٨] - ص٤٥٩ ج٢ بـ١٩٨ الفتوحات المكية
[٢٧٩] - ص١٤٥ ج١ فصوص الحكم

الرحمن – العماء "أو الأعيان الثابتة"، كما ظهر عن هذا النفس "بحالتيه" أصوات الرعود التي تمثل الحروف المجهورة وهبوب النسيم التي هي الحروف المهموسة"[٢٨٠]. وليس هذا بغريب طالما الإنسان عنده على صورة الرحمن حتى في التنفيس، أو بتعبير أدق طالما أن الرحمن بزعمه على صورة الإنسان.

وعن استخدام النكاح في تفسير صدور الكون يقول ابن عربي: اعلم أنه "ليس في العالم المخلوق أعظم قوة من المرأة، لسر لا يعرفه إلا من عرف فيما وجد العالم- وأنه عن مقدمتين فإنه نتيجة"[٢٨١]. فالعالم إذن وجد عن طريق النكاح بين مقدمتين هما الذكر أو الناكح، والأنثى أو المنكوح، ونتيجة التي هي الولد "فالأمر توليد – كما يقول – فما ثم في صدور الكون إلا والد وولد"[٢٨٢]، وكل ما له وجود إنما هو عن نكاح أو تثليث، والنكاح كما يقول "منه إلهي وروحاني وطبيعي- فأما الإلهي فهو توجه الحق على الممكن في حضرة الإمكان- فعين الممكن هو المسمى أهلاً "أو زوجة"- والتوجه الإرادي الحبي نكاحاً والإنتاج إيجاداً في عين ذلك الممكن-."[٢٨٣]

---

[٢٨٠] - ص٣٩١ ج٢ بـ١٩٨ الفتوحات المكية
[٢٨١] - ص٤١٦ ج٢ بـ١٩٨ نفسه
[٢٨٢] - ص٤١٨ ج٤ بـ٥٥٩ نفسه
[٢٨٣] - ص٥١٦ ج٣ بـ٣٨٢ نفسه

وإذا ما قلت: إلا أن القرآن قد نزَّه الألوهية عن الصاحبة والولد فسوف ترى ابن عربي غاضباً مستهزءاً ليقول: "عجباً في تنزيهه عن الصاحبة والولد، وعنه تولَّد في العالم ما تولَّد من ذي روح وجسم وجسد- وهذا الباب مقفل وقد رميت إليك بالمفتاح"[٢٨٤]. فلا تبح بهذه الأسرار لأي كان! واعلم أن "**النفس الكلية- هي أول منكوح لناكح كوني "هو الحقيقة المحمدية" وكل ما دونها فهو من عالم التولد، العقل "أو الحقيقة المحمدية" أبوه، والنفس "أو اللوح المحفوظ" أمه**"[٢٨٥]، "ثم صرف العقل وجهه إلى العماء- فعمه التجلي الإلهي كما تعم لذة الجماع نفس الناكح- فكان نكاحاً معنوياً صدر عنه العرش الذي ذكر الحق أنه استوى عليه الاسم الرحمن"[٢٨٦].

ثم إن للرجل نصاً جامعاً في نكاح عناصر الكون بعضها ببعض يقول فيه: "فكان بين القلم واللوح نكاح"[٢٨٧]، وبعد أن عرفتَ الأب الثاني من الممكنات وأنه أم ثانية للقلم الأعلى، كان مما ألقي إليها "أي من نكاحها" الطبيعة والهباء، فكان أول أم ولدت توأمين- فالطبيعة والهباء أخ وأخت لأب واحد "هو الحقيقة المحمدية" وأم واحدة هي اللوح المحفوظ ثم نكح الطبيعة الهباء فولد بينهما صورة الجسم الكلي، وهو أول

---

[٢٨٤] - ص٣٤٩ ج٤ بـ٥٥٩ نفسه
[٢٨٥] - ص٤٢٩ ج٢ بـ١٩٨ نفسه
[٢٨٦] - ص٤٣٠ ج٣ بـ٣٧١ نفسه
[٢٨٧] - ص١٣٩ ج١ بـ١١ نفسه

جسم ظهر، فالطبيعة هي الأب والهباء هو الأم. ثم نزل التوالد في العالم الترابي على ترتيب مخصوص"[288]. ومن أجل تمام فكرة الوجود المتصل جعل ابن عربي من الناكح منكوحاً وهكذا في كل شيء "فالليل والنهار أبوان بوجهان وأمان بوجه"[289]، والحرارة والبرودة "فاعلان "أي ناكحان" والرطوبة واليبوسة منفعلان "أو منكوحان" فنكحت الحرارة اليبوسة فأنتجا ركن النار، ونكحت الحرارة الرطوبة فأنتجا ركن الهواء"[290]. وهكذا إلى كل شيء! وأنعم بهكذا علم نهايته قول ابن عربي: **"وعندي أن العالم هو عين العلة والمعلول ما أقول أن الحق – أو الله – علة له"**[291]. فلا خالق من العدم ولا وجود لإله مفارق للعالم ويقول أيضاً: "فلا نقول. أن الله موجود قبل العالم. ولا أن العالم موجود بعد وجود الحق"[292] حيث لا قبل ولا بعد في حقه سبحانه وتعالى.

ولما كانت الأعيان برأيه هي العدم الموجود نراه وقد استخدم التجلي والمعنى الخاص لـ"كن" ليقول: "فيتجلى تعالى للأشياء التي يريد إيجادها في حال عدمها "أي على الأعيان الثابتة المنعدمة الوجود المادي" في اسمه النور تعالى فينفهق على تلك الأعيان أنوار هذا التجلي فتستعد به

---

[288] - ص١٤٠ ج١ بـ١١ نفسه
[289] - ص١٤١ نفسه
[290] - ص١٤٢ – ١٤٣ نفسه
[291] - ص٥٤ ج٤ بـ٤٤٠ نفسه
[292] - ص٩٠ ج١ بـ٢ نفسه

لقبول الإيجاد. فيقول له عند هذا الاستعداد كن فيكون من حينه من غير تثبط"[٢٩٣]. فالتجلي يعطي الاستعداد للأعيان الثابتة و"كن" تخرجها من الوجود المعقول أو العدم الموجود إلى الوجود الحسي أو الخارجي "وهي بذلك تتجه للموجود لا للإيجاد من العدم الذي يعني اللاوجود.

[٢٩٣] - ص٣٧٢ ج١ بـ٧٢ نفسه

ـ الخاتمة:

ومما مرَّ معنا نرى أن أولياء التصوف أو أولياء الأمر في التصوف:

١ – يشدِّدون على اتباع السنة ولكن للمريد فقط أو للمعنى المختلف للسنة.

٢ – أولياء التصوف يكرهون العمل بعلم الحديث ويعتبرونه من البدع والقواطع التي يجب الزهد فيها.

٣ – السنة عند أولياء التصوف وطالما النبوة كسب لا اصطفاء بزعمهم فهي تعني من جملة ما تعنيه اتباع الدروب والسبل التي سلكها الرسول ﷺ في تحصيله للنبوة والوصول إلى الله للأخذ عنه كل علم ومعرفة.

٤ – الأحاديث لا تصح عند أولياء التصوف إلا عن طريق الكشف والتعريف الإلهي، أو عن المنامات التي بها رؤية الرسول أو عن رؤيته ﷺ يقظة.

وبالحقيقة المحمدية التي آمن بها أولياء التصوف كان لهم ما يلي:

١ – الغلو في محمد ﷺ إلى حد مساواته بالله.

٢ – إنكار عقيدة الخلق من العدم وإنكار وجود الإله الخالق المفارق للعالم.

٣ – الاعتقاد بوحدة العقائد التي بها المساواة بين العقائد والأديان.

٤ – زعم الألوهية للأولياء.

٥ – جعلهم لمحمد ﷺ أو الدين على الإجمال، ما بين ظاهر يخص أهل الظاهر وديانتهم، وباطن يخص أهل الباطن وعقائدهم المختلفة.

ومع ذلك كله فلا بد من التمييز بين ما يقوله البعض من أن الوجود لم يكن إلا كرامة لمحمد ﷺ ولا ضير، وما بين الاعتقاد الصوفي القائل من خلال عقيدة الحقيقة المحمدية بأن محمداً ﷺ ذا طبيعة إلهية أو هو الخالق أو هو النور الذي تجسدت أو وجدت عنه كل الموجودات وجودها عن ثور المجوس من قبل. وعندها سيبقى الفرق فرقاً ما بين المعنى القيمي أو التفاضلي وما بين المعنى الوجودي للإنسان الكامل أو الملِك الأعظم الذي آمن به الغنوصيون قبل الإسلام.

- المراجع:

١. **القرآن الكريم.**

٢. **الرسالة القشيرية:** عبد الكريم القشيري ط١٩٥٧.

٣. **الطبقات الكبرى:** عبد الوهاب الشعراني، دار الفكر.

٤. **الفتوحات المكية:** محيي الدين ابن عربي، مكتبة الثقافة.

٥. **الإبريز:** أحمد المبارك، تحقيق محمد عدنان الشماع ج١ ط١ ١٩٨٤، ج٢ ط١ ١٩٨٦.

٦. **التصوف في شعر ابن الفارض:** تحقيق حامد الحاج عبود ط١ ١٩٨٨.

٧. **التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقتباس:** عبد القادر عطا ط١ ١٩٨٧.

٨. **الفيلسوف الغزالي:** د. عبد الأمير الأعسم ط٢ ١٩٨١.

٩. **الصلة بين التصوف والتشيع:** د. كامل مصطفى الشيبي ط٢.

١٠. **المظنون به على غير أهله:** أبو حامد الغزالي، هامش الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل.

١١. **التصوف الثورة الروحية في الإسلام:** د. أبو العلا عفيفي، دار الشعب بيروت.

١٢. **المظنون الصغير:** أبو حامد الغزالي، هامش الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل.

١٣. **الإنسان الكامل في الإسلام:** د. عبد الرحمن بدوي، ط٢ ١٩٧٦.

١٤. **التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق:** د. زكي مبارك، دار الجيل.

١٥. **الحلاج شهيد التصوف الإسلامي:** طه عبد الباقي سرور، ط٢.

١٦. **اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر:** عبد الوهاب الشعراني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١ ١٩٥٩.

١٧. **التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة:** د. إبراهيم هلال ١٩٧٥.

١٨. **الروحية عند محيي الدين ابن عربي:** د. علي راضي.

١٩. **الصوفية في نظر الإسلام:** سميح عاطف الزين ط٣ ١٩٨٥.

٢٠. **الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي:** يوسف زيدان ١٩٨٨.

٢١. **الفتح الإلهي:** هامش إحياء علوم الدين.

٢٢. **المقصد الأسنى:** أبو حامد الغزالي، مطبعة حجازي.

٢٣. **الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل:** عبد الكريم الجيلاني، مطبعة حجازي، القاهرة ١٣٦٨ هـ.

٢٤. **ابن سبعين وفلسفته الصوفية:** د. أبو الوفا التفتازاني، دار الكتاب اللبناني، ط١ ١٩٧٣.

٢٥. **إيقاظ الهمم في شرح الحكم:** أحمد بن عجيبة ط١ ١٩٨٦.

٢٦. **إحياء علوم الدين:** أبو حامد الغزالي.

٢٧. **تاريخ التصوف الإسلامي:** د. عبد الرحمن بدوي ط١ ١٩٧٥.

٢٨. **قلادة الجواهر:** محمد أبو الهدى الصيادي.

٢٩. **قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة:** أحمد الحراني ط١ ١٣٧٣ هـ.

٣٠. **ميزان العمل:** أبو حامد الغزالي، مطبعة حجازي ١٩٦٣.

٣١. **مدراج السالكين:** ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقي ط٢ ١٩٧٢.

٣٢. **من التراث الصوفي:** د. محمد كمال إبراهيم جعفر، ط١ ١٩٧٤.

٣٣. **ملحق إحياء علوم الدين.**

٣٤. **مدخل إلى التصوف الإسلامي:** أبو الوفا التفتازاني ط٢ ١٩٧٦.

٣٥. **مقدمة في التصوف:** صهيب سعران ط١ ١٩٨٩.

٣٦. **فلسفة التأويل:** د. نصر حامد أبو زيد ط١ ١٩٨٣.

٣٧. **في التصوف الإسلامي وتاريخه:** رينولد. أ. نيكولسن، ترجمة د. أبو العلا عفيفي.

٣٨. **فصوص الحكم:** محيي الدين ابن عربي، تحقيق أبو العلا عفيفي، دار الكتاب العربي.

٣٩. **بد العارف:** عبد الحق ابن سبعين، تحقيق د. جورج كتورة ط١ ١٩٧٨.

٤٠. **روح القدس في محاسبة النفس:** محيي الدين ابن عربي، مكتبة الوكيل.

٤١. **نظرية المعرفة الإشراقية:** د. إبراهيم هلال ١٩٧٧.

٤٢. **لطائف المنن:** تاج الدين بن عطاء الله السكندري ١٩٧٩ مكتبة القاهرة.

٤٣. **شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية:** د. عبد الرحمن بدوي ط٤.

٤٤. **شروح رسالة الشيخ أرسلان في علوم التوحيد والتصوف:** عبد الغني النابلسي، مطبعة المسلم، تحقيق عزت حصرية، دمشق ١٩٦٩.

٤٥. **طبقات الصوفية:** عبد الرحمن السلمي، تحقيق نور الدين شريبة ط٣ ١٩٨٦.

٤٦. **دراسات في التصوف الإسلامي:** د. محمد بلال شرف، دار النهضة العربية، ١٩٨٤.

- الفهرس: